بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تأويلات الباطنية ﴾

الأبعـــاد والمخاطـــر

إعداد الدكتور

ابراهيم أحمد محفوظ

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين .

وبعد : فإن فكرة « التأويل » قد عرفت لدى فرق كثيرة ، وقال بها علماء كثيرون من المشتغلين فى الحقل الكلامى الإسلامى وغيره ، من أمثال المعتزلة والأشاعرة والفلاسفة وغيرهم .

لكن « التأويل » عند الباطنية ، قد اتخذ شكلاً خاصاً ، واكتسب أبعاداً خطيرة ، انتهت بهم إلى إنكار مبادئ الدين والتحلل من كل شرائعه .(١)

فالمعتزلة قالوا « إن ما دل تظر العقل ودليله على بطلان ظاهره ، علمنا بالضرورة أن المراد منه غير ذلك ، ثم يأخذون فى تأويل النص المصادم للعقل على معنى من المعانى التى يحتملها اللفظ ، بحيث يكون المعنى المؤول مناسبا للفظ بطريق التجوز والاستعارة .

وأما الباطنية فلم يرتضوا التأويل اللغوى ولا قياس العقل ، وإنما قبلوا فقط التأويل الذى يأتى عن طريق الإمام الذى هو معصوم عندهم ، ويعرف أسرار الدين الحقيقية التى هى مستودعة عنده كما يدعون » .(٢)

وقد توسعوا فى إستعمال ذلك المعنى وتطبيقه ، حتى شمل ذلك عندهم كل الآيات والأحاديث ، فلم يتركوا نصا من كتاب أو سنة إلا واخضعوه للتأويل ، دون

---

(١) انظر : ابن الجوزى - تلبيس ابليس ص١٠٢ ، الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص٢٢٩ ، البغدادى : الفرق بين الفرق ص٢٩٨ .

(٢) د/ عبد العزيز سيف النصر : التأويل الاسماعيلى الباطنى ص٤ .

تفريق بين ايات العقائد ، وأحاديث العبادات ، ونصوص المعاملات ، وكان مبدؤهم فى ذلك أن لكل ظاهر باطنا ، ولكل تنزيل تأويلا ، .[1]

وقد أوقعهم ذلك فى مغالطات كثيرة ، جرّت بهم إلى القول بقدم العالم ، وانكار الصانع المدبر ، كما أنكروا القيامة والرسل والشرائع كلها [2] ، فجاءت عقائدهم بين هذيان المجوس ، وكفر الوثنية ، وضلال الفلاسفة .

- ومع كل هذه التُرّهات .

- ومع هذه الإباحية والزندقة .

- ومع هذه الخرافة وفوضى التأويل عند الباطنية .

- ومع آرائهم المصادمة لعقائد المسلمين .

- مع كل هذا ، كانوا يدعون الاعتدال والالتزام ، ويزعمون التقدمية والتجديد ، ويتغنون باسم الابداع العلمى ، والإنبعاث الفكرى ، والثورة على الركود والجمود ، وانهم يقدمون للمسلمين ، بل للعالم كله الفلسفة الدينية الحقة ... .

إلى غير ذلك من الكلمات والشعارات التى يزين بها الباطنية أراءهم ، ويخفون وراءها سمومهم .

وحتى لا ينخدع أحد بهذه المظاهر البراقة ، وحتى لا يقع فى ذلك الفخ المنصوب له بغية اصطياده وإيقاعه فى الشرك والرذيلة ، رأيت أن أقدم هذا

---

(١) المصدر السابق والصحيفة .

(٢) انظر : البغدادى - الفرق بين الفرق ص٢٦٩ ، الفخر الرازى : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٧٦ ، حجة الإسلام الغزالى : فضائح الباطنية ص٣٧ .

البحث الذى أبين فيه عقائد الباطنية وتأويلاتهم ، ومدى تحريفهم للعقائد الإسلامية .

وفضلا عن هذا الهدف الذى يتمثل فى بيان ما عليه الباطنية من معتقدات باطلة ، فإن هناك هدفاً آخر من وراء البحث يتمثل فى بيان أن هذه المعتقدات الباطنية الزائفة ، يلتزم بالكثير منها أتباعهم وضحاياهم حتى يومنا هذا ، وأن هذه الحيل القديمة يستخدمها الباطنيون فى أيامنا ، والمبشرون وكل أصحاب الأفكار الضالة ، مع اختلاف فى الأسلوب واتفاق نحو الهدف ، ألا وهو : الإنحلال والإنسلاخ كلية عن الإسلام .

والشرع فى التهيئة لذلك والتمهيد له ، ونبدأ بسؤال عن الباطنية من هم ؟ وكيف كانت نشأتهم ؟

التعريف بالباطنية
نشأتهم وتاريخهم

الباطنية : فرقة من الشيعة الغالية التى يرجع أصلها إلى المناداة بحق على بن أبى طالب وأحقيته فى الخلافة بعد رسول الله ﷺ دون غيره من الصحابة ، وقالوا إن الإمامة لا ينبغى أن تخرج من أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده .(١)

وقالوا أيضا : إن تنصيب الإمام ليس أمراً إختياراً يترك لإرادة الأمة واختيارها ، بل هو قضية أصولية . وهو ركن الدين وأساسه ، ولا يجوز للرسل إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى الأمة .(٢)

وإذا كانت هذه الحركة الباطنية قد ظهرت فى أحضان الفكر الشيعى المتطرف (٣) ، فقد كان ظهورها – وكما يذكر صاحب الفرق – فى عصر الخليفة المأمون ، وعلى يد رجل يدعى « ميمون بن ديصان » الذى كان مجوسيا تظاهر بالإسلام ، وأخذ يجوب الآفاق داعيا إلى مذهبه ، والتقى بجماعة ممن على شاكلته ساعدوه فى تأسيس ونشر هذا المذهب الباطنى الهدام .(٤)

وقد أطلق عليهم هذا الاسم (الباطنية) بسبب قولهم إن النص الدينى –

---

(١) انظر : البغدادى – أصول الدين ص٢٧٩ ، الغزالى – الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٥١ ؛ الأصفهانى – شرح المطالع ص٢٣١ – ٢٣٢ .

(٢) انظر : الشهرستانى – نهاية الاقدام ص٤٧٨ – ٤٩٠ وتصحيح الفرجيوم ، البغدادى – الفرق بين الفرق ص٣٤٩ .

(٣) نعم : فقد كانت الحركة الباطنية – فى بادئ الأمر – إحدى فرق الشيعة الغالية ، ثم صارت تهدف إلى إقامة مجتمع باطنى يحل محل الدولة الإسلامية ويقوم على أنقاضها .

(٤) انظر : البغدادى – الفرق بين الفرق ص٢٨٢ – ٢٩٣ .

سواء منه القرآنى أو السنى – له ظاهر وباطن ، وأن الباطن بمثابة اللب ولذلك فهو المراد [1] ، أما الظاهر فإنه بمثابة القشر ولذلك فإنه غير مراد .

وبذلك أسقطوا التكاليف الشرعية الظاهرة ، وقالوا إنها لا يراد منها الحقيقة ، وإنما هى رموز وإشارات لا يعرفها إلا الأئمة .

وهذا ما عناه ابن الجوزى عندما قال فيهم « الباطنية سموا بذلك ، لأنهم يدعون أن لظاهر القرآن والأحاديث بواطن تجرى من الظواهر مجرى اللب من القشر ، وأنها بصورتها توهم الجهال – يريدون من ليس منهم – صوراً جلية ، وهى عند العقلاء – يريدون أنفسهم ومن هو منهم – رموز واشارات إلى حقائق خفية ، وان من تقاعس عقله عن الغوص فى الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار ، وقنع بظواهرها كان تحت الأغلال التى هى تكليفات الشرع ، ومن ارتقى إلى علم الباطن ، إنحط عنه التكليف واستراح من أعبائه .

قالوا : وهو المراد بقوله تعالى ﴿ ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ﴾ [2] ومرادهم أن ينزعوا من العقائد موجب الظواهر ليقدروا – بالتعلل بدعوى الباطن – على ابطال الشرائع » .[3]

ومن ثم : فقد ورد عنهم بعض التأويلات الفاسدة لألفاظ القرآن الكريم اعتبرها علماء التفسير من جملة الدخيل الذى تسلل إلى رحاب القرآن الكريم ، كما اعتبروا صنيعهم الحادا فى كتاب الله ، وتحريفا للكلم عن مواضعه ، وذلك لتناقضه مع قواعد اللغة وأدلة الشرع .

---

(١) والباطن لم يكن باطنا لغموضه فى ذاته ، ولا لخفائه فى نفسه وإنما لسريته التى لا يعرفها إلا الإمام الذى له اطلاع على الغيب ويوحى إليه (انظر : الأصفهانى شرح مطالع الأنظار ص٢٣٠ – ٢٣١) .

(٢) من الآية ١٥٧ من سورة الأعراف .

(٣) تلبيس إبليس ص١٠٢ بتصرف .

صلتهم بالمجوس واليهود والذين أشركوا :

قلنا أن زعيم الباطنية ومؤسسها الأول كان مجوسيا يظهر الإسلام ويبطن الكفر وأن ولده عبد الله كان كذلك .

وإذا كان مؤسس الفرقة هكذا مجوسيا ، فهو يعمل على نشر ما يدين به من الكفر والزندقة ، ويروج لذلك ويدعو إليه .

ولا يمكن لحركة كهذه أن تنتج أفكارا إلا أفكارا تناقض الدين وتناهض العقيدة .

ولا يمكن لاجتماع كهذا أن يفرز رجالا إلا رجالا قد امتلأت قلوبهم وعقولهم وكل جوارحهم بمعانى الشرك والإلحاد .

وهذا ما حدث بالفعل ، فقد ذهب البغدادى إلى أن الباطنية دهرية وزنادقة يقولون بقدم العالم وينكرون الرسل والشرائع كلها .[1]

ويتفق معه فى ذلك حجة الإسلام الغزالى والفخر الرازى ، فقد قال الأخير « مقصودهم – أى الباطنية – على الاطلاق ، ابطال الشريعة بأسرها ونفى الصانع ، ولا يؤمنون بشيئ من الملل ولا يعترفون بالقيامة » .[2]

هذا : ومن المؤرخين من ينسب الباطنية إلى الصائبة التى بحران ، ويستدل على قوله هذا بأمرين :

الأول : أن حمدان قرمط الباطنى كان من صائبة حران .

---

(١) انظر : الفرق بين الفرق ص٢٥٠ – ٢٥٢ .

(٢) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص٧٦ .

والثانى : أن هناك شبها واضحا ، والتقاءا قريبا - فى المنهج - بين الفريقين ، فالصائبة يكتمون دينهم ولا يظهرونه ، والباطنية كذلك يتخذون التقية والتخفى والكتمان منهجا وأسلوبا .

كذلك من المؤرخين من يربط الباطنية فى معتقداتهم باليهود فى أفكارهم .

فإن الباطنية عندما قالوا بفكرتهم فى التأويل الباطنى ، قد سبقوا إليها بفكرة التأويل الرمزى عند (فيلون) اليهودى الذى كان يشرح التوراه شرحا رمزيا .

وكان اليهود ، يأولون الفصل الأول من سفر التكوين بأن الله خلق عقلا خالصا فى عالم المثل هو الإنسان المعقول ، ثم صنع على مثال هذا العقل عقلا أقرب إلى الأرض وهو آدم ، وأعطاه الحس - وهى حواء - معونة ضرورية له ، فطاوع العقل الحس وانقاد للذة فولدت النفس فى ذاتها الكبرياء - وهو قابيل - وجميع الشرور ، وانتفى منها الخير - وهو هابيل - وماتت موتا خلقيا ، .[1]

كذلك فإنهم - أى اليهود - يؤلون ، عبور البحر الأحمر بأنه رمز لخروج النفس من الحياة الحسية .

وسبعة أغصان الشمعدان بأنها رمز للسيارات السبع .

والحجران الكريمان اللذان يحملهما الكاهن الأكبر بأنهما رمز للشمس والقمر ، أو لنصفى الكرة الأرضية .

والأباء الذين يعود إليهم ابراهيم بأنهم رمز للكواكب ، أو العناصر الأربعة ،

---

(١) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص٢٤٨ .

والفصح بأنه رمز لترك النفس للجسم وشهواته ، وشجرة الحياة فى الفردوس الأرضى بأنها رمز لأعم الفضائل وهى الطيبة .

واقتران ابراهيم بسارة بأنه رمز لاتحاد الإنسان الصالح بالفضيلة ، وغير ذلك كثير ، .[1]

واستغل الباطنية فكرة التأويل هذه لدى اليهود فقالوا بفكرتهم فى الظاهر والباطن والمثل والمثول [2] ، وأولوا نصوص الدين تأويلا يختلف عن تأويل المتكلمين .

كذلك : فإن الباطنية عندما يجعلون التأويل حقا لأئمتهم لا يجوز لغيرهم ولا يتعداهم إلى سواهم ، فإنهم يصنعون صنع النصارى ، ويفعلون فعل الكنائس المسيحية وخاصة فى القرون الوسطى ، عندما كانت تهيمن على كل شئون الحياة ، وتحتكر لنفسها حق تفسير الكتاب المقدس ، وتضطهد العلماء الذين يخالفون تلك التفسيرات ، وتصفهم بالزندقة والإلحاد ، وتتعقبهم أينما وجدوا .

اذن : فدعوى الباطنية – فى نشأتها ومكوناتها – مزيج من عقائد المجوس ، وديانات اليهود ، وضلال النصارى ، ومذيان الفلاسفة ، تنسج خيوطها وتبنى أفكارها على أساس من كل هذا وتقتبس منه .

وهذا ما يؤكده علماء الكلام وغيرهم من أمثال الغزالى ، والبغدادى ، وابن الجوزى .

فقد قال الغزالى فى مجال الرد عليهم وبيان أنهم أخذوا تعاليمهم من

---

(١) المصدر السابق والصحيفة .

(٢) نظرية المثل والمثول عند الباطنية سوف نعرض لها ونبين المراد منها بعدُ .

المجوس تارة ومن الفلاسفة أخرى ، فنرى أن نشتغل بالرد عليهم فيما اتفقت كلمتهم عليه ، وهو ابطال الرأى والدعوة إلى التعليم من الإمام المعصوم [١] ، فهذا عمدة معتقدهم وخلاصة كلامهم ، فالنصرف العناية إليه ، وما عداه فمنقسم إلى هذيان ظاهر البطلان ، وإلى كفر مستترق من الثنوية والمجوس فى القول بالآلهين ، مع تبديل عبارة النور والظلمة بالسابق والتالى ، إلى ضلال منتزع من كلام الفلاسفة فى قولهم : إن المبدأ الأول علة فى وجود العقل على سبيل اللزوم عنه لا على سبيل القصد والاختيار ، [٢] ، فصار أكثر كلامهم موافقا للثنوية والفلاسفة فى الباطن ، وللرافضة والشيعة فى الظاهر ، [٣] ، وبالجملة فإنهم يوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ويقرونهم عليها ، فهذه جملة المذهب ، .[٤]

ويشرح البغدادى صلة هذا المذهب الباطنى بالمجوسية فيقول :

« ذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ولم يجسروا على اظهاره خوفا من سيوف المسلمين ، [٥] فوضعوا مبادئ وأسساً وأولوا نصوص الدين بما يوافق تلك الأسس والمبادئ .

أما ابن الجوزى : فإنه يوضح هذه الصلة فى تفصيل أكثر يصل به إلى

---

(١) انظر كيف يبطلون الرأى ، ويعطلون العقل ، وينكرون القياس ، وهذا من أوضح الواضحات على ضلالهم وفساد مذهبهم .
(٢) فضائح الباطنية ص٤٠ .
(٣) المصدر السابق ص٤٦ .
(٤) المصدر السابق ص٣٧ .
(٥) الفرق بين الفرق ص٢٦٩ .

بيان السبب الذى حمل هؤلاء على القول ببدعتهم ، فيذكر أن القوم قد هالهم أمر محمد ﷺ بعد أن ذاع خبره واستطار فى الآفاق ، وأنهم عجزوا عن مقاومته ، ولا يتأتى لهم أن يأتوا بمثل ما أتى به من الوحى والنبوة ، فشاوروا فى ذلك جماعة من المجوس والمزدكية (١) وملحدة الفلاسفة ، وطلبوا معاونتهم فى استنباط تدبير يخفف عنهم ما نالهم من استيلاء أهل الدين عليهم فقالوا « سبيلنا أن ننتحل عقيدة طائفة من فرقهم أركهم عقلا ، وأسخفهم رأيا ، وأقبلهم للمحالات والتصديق بالأكاذيب وهم « الروافض » ، فنتحصن بالانتساب لهم ونتودد إليهم بالحزن على ما جرى على آل محمد من الظلم والجور ، ليمكننا شتم القدماء الذين نقلوا اليهم الشريعة ، فإذا هان أولئك عندهم ولم يلتفتوا إلى ما نقلوا ، أمكن استدراجهم إلى الانخلاع من الدين ، فإذا بقى منهم معتصم بظواهر القرآن والأخبار أوهمناه ان تلك الظواهر لها أسرار وبواطن ، وأن المنخدع بظواهرها أحمق ، وإنما الفطنة فى اعتقاد بواطنها ، ثم نبث إليهم عقائدنا ، ونزعم أنها المراد بظواهرها عندكم ، فإذا تكثرنا بهؤلاء سهل علينا استدراج باقى الفرق » (٢) .

هذا عن الباطنية ، وبيان عمن أخذوا وبمن تأثروا ؟ فماذا عن فرقهم وألقابهم ؟

فرقهم وألقابهم :

أما عن ألقاب الباطنية وفرقها ، فهو موضع خلاف ونزاع بين علماء الكلام والمشتغلين بالفرق .

---

(١) نسبة إلى زعيم لهم يسمى فردك ، انظر فى شأنهم الملل والنحل للشهرستانى ج١ ص١٠٤ .

(٢) تلبيس إبليس ص٧٨ .

فبينما نرى أحد الباحثين يقول « وألقاب هذه الفرقة التى تداولتها ألسنة الناس على اختلاف الأزمنة هى : الاسماعيلية ، الباطنية ، السبعية ، التعليمية ، القرامطة ، الخرمية ، البابكية ، المحمرة » [١] وهذا معناه أنها فرقة واحدة وإن اختلفت الألقاب وتعددت الأسماء .

نرى باحثا آخر يقول « لفظ الباطنية – كاتجاه ومنهج وعقائد – ينضوى تحته فرق عدة ، من أهمها : إسماعيلية الستر والظهور ، وما انبثق عن الأخيرة مثل البوهرة ..... والقرامطة والدروز » [٢] وهذا معناه أن الاسماعيلية والبهرة والقرامطة وغيرها ، ليست ألقابا للباطنية ، وإنما هى فرق أخرى وإن اندرجت تحتها وانبثقت عنها .

والذى أراه : أن الخلاف لفظى وليس حقيقيا ، وأن الآراء ليست تتباعد .

فمن نظر – من تلك الألقاب – إلى الاتجاه العام ، وإلى تداخل العقائد والأهداف والمناهج ، عدها ألقابا لفرقة واحدة ، وهو أمر طبيعى .

ومن جرى وراء المعنى فى جزئياته ، وتتبع القضية فى فروعها وتداعياتها ، وما ينشأ عن ذلك من خلاف وانقسام وتفرق ، عدها فرقاً وأحزاباً ، وهو أمر طبيعى أيضا .

على النهج الأول ، سار كل من الغزالى فى فضائح الباطنية [٣] ، وابن الجوزى فى تلبيس إبليس [٤] ، والشهرستانى فى الملل والنحل [٥] ، والبغدادى فى الفرق بين الفرق . [٦]

---

(١) د/ عبد العزيز سيف النصر : التأويل الاسماعيلى الباطنى ص١٤ .
(٢) د/ محمد الأنور : بحوث فى الفرق ص١٤٥ .
(٣) انظر : المصدر المذكور ص٢٥ .
(٤) انظر : المصدر المذكور ص١٠٥ .
(٥) انظر : المصدر المذكور ص٩٨ جـ١ .
(٦) انظر : المصدر المذكور ص٢٧٠ .

فقد اعتبروا الاسماعيلية باطنية ، كما اعتبروا الباطنية هى الاسماعيلية ، وذلك للحيثية التى ذكرناها .

لكن : ماذا عن هذه الألقاب ؟ وما علاقتها بالمعنى العام للباطنية ؟

على ذلك يجيب صاحب « التأويل الاسماعيلى » فيقول : « أما الاسماعيلية : فهى نسبة إلى زعيمهم محمد بن اسماعيل بن جعفر ، ويزعمون أن أدوار الإمامة انتهت به ، إذ كان هو السابع من محمد ﷺ ، وأدوار الإمامة سبعة عندهم .[١]

وأما الباطنية : فقد لقبوا بها لقولهم إن لظاهر القرآن بواطن تجرى مجرى اللب من القشر ، وانها يصورها توهم عند الجهال الأغبياء صورا جلية ، وهى عند العقلاء والأذكياء رموز واشارات إلى حقائق معينة .[٢]

وأما التعليمية : فإنهم لقبوا بها ، لأن مبدأ مذهبهم ابطال الرأى ، وابطال تصرف العقول ، ودعوة الخلق إلى التعلم من الإمام المعصوم ، وأنه لا مدرك للعلوم إلا بالتعليم .[٣]

وأما السبعية : فقد لقبوا بها لاعتقادهم أن أدوار الإمامة سبعة ، وأن الإنتهاء إلى السابع هو آخر الدور ، وهو المراد بالقيامة .

وكذلك لقولهم : ان تدابير العالم السفلى مدوطة بالكواكب السبعة [٤] ، وهذا القول مأخوذ من ملحدة المنجمين .[٥]

---

(١) انظر : فضائح الباطنية ص٧ .
(٢) فضائح الباطنية ص٧ .
(٣) المصدر السابق ص٨ .
(٤) هى الشمس والقمر وعطارد والمشترى والمريخ وزحل والزهرى .
(٥) وانظر : اعتقادات فرق المسلمين والمشركين الفخرالرازى ص٨٠ .

وأما القرامطة : فقد لقبوا بها نسبة إلى رجل يقال له « حمدان قرمط » وهو أحد دعاتهم فى الابتداء ، فاستجاب له فى دعوته رجال سموا القرامطة .

وأما الخرمية : فقد لقبوا بها نسبة إلى حاصل مذهبهم ، وهو طى بساط التكليف وحط أعباء الشرع ، وتسليط الناس لطلب الشهوات وقضاء والوطر من المباحات والمحرمات » ، وخرم لفظ أعجمى يشير إلى الشيئ المستلذ المستطاب الذى يرتاح الإنسان لرؤيته ، وكان هذا لقبا للمزدكية ، وهم أصحاب الاباحة من المجوس ، حيث أباحوا النساء وان كن من المحارم ، وأحلوا كل محظور » .[1]

وأما البابكية : فهو اسم لطائفة منهم بايعوا رجلا يسمى « بابك الخرمى » الذى استفحل أمره واشتدت شوكته خلال حياة المعتصم بالله ، واستطاعت هذه الطائفة صد المسلمين إلى حين هبت ريح النصر ، واستولى عليهم المعتصم فصلب بابك ورد أتباعه خاسرين .[2]

وأما المحمرة : فقد سموا بذلك لأنهم صبغوا أثيابهم بالحمرة أيام « بابك » ولبسوها » .[3]

منهجهم فى الدعوة :

والباطنية إذ يقولون بالباطن للنصوص والأحكام والتشريعات ، إنما يهدفون إلى الغاء المراد من هذه النصوص والأحكام ، وإلى نسخ شريعة الإسلام ، وإيقاع الناس فى بحر متلاطم الأمواج من الشرك والوثنية ، حتى يتم لهم الإعلان عن

(١) الشهرستانى : الملل والنحل ج١ ص٢٢٩ نقلا عن التأويل الاسماعيلى الباطنى ص١٦ .
(٢) انظر كذلك : الفرق بين الفرق ص٢٨٤ .
(٣) د/ عبد العزيز سيف النصر : التأويل الاسماعيلى الباطنى ص١٤ - ١٦ .

قيام دولتهم الباطنية ، وفتح الباب واسعا لمعانى تتناقض كلية مع دين الله تعالى ، وتلك هى غايتهم الكبرى ، وذلك هو هدفهم الأكبر .

وهم من أجل بلوغ ذلك الهدف وتحقيقه ، قد حددوا لهم منهجا ، ووضعوا لأنفسهم طرقا وحيلا كشفها العلماء وأزاحوا الستار عنها ولخصوها فى المراتب التالية :

التفرس ، التأنيس ، التشكيك ، التعليق ، الربط ، التدليس ، التأسيس ، الخلع والسلخ .

« وإليك تعريفاً موجزاً بكل مرتبة من المراتب السابقة :

١ – التفرس :

ومعناه تمتع الداعى بالذكاء والحيطة وقوة الحيلة ، بحيث يستطيع أن يميز بين من يقبل الاستدراج والأمور الباطنية ومن ينفر من مجرد الدعوة [١] ، وأن يكون عارفا بوجوه تأويل الظواهر ليردها إلى الباطن متى شاء وبالكيفية التى يريدها .

وقد حذر الباطنية دعاتهم من إلقاء البذور فى الأرض السبخة وأرادوا بذلك منعهم عن اظهار بدعتهم عند من لا تؤثر فيهم بدعتهم .[٢]

---

(١) وبحيث يستطيع أن يميز فى المدعو ميوله واتجاهه ، فمن رآه ذا خلاعة ومجون بغضه فى العبادات وحثه على الملذات ، ومن رآه مائلا إلى العبادات حمله عليها ثم شككه فيها .
« ومن رآه شاكا فى دينه ، أو فى المعاد والثواب والعقاب ، صرح له بنفى ذلك .
ومن رآه مائلا إلى أبى بكر وعمر ، مدحهما عنده وقال : لهما حظ فى تأويل الشريعة ، ومن رآه مائلاً إلى الشيعة ، دخل عليه من باب شتم الصحابة وهكذا » .
(المصدر السابق ص١٧) فهم كما يقول الغزالى « يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه ، بعد أن يظفروا منهم بالإنقياد لهم » ، انظر : فضائح الباطنية ص٣٧ .

(٢) انظر كذلك : الفرق بين الفرق للبغدادى ص٢٨٣ .

٢ – التأنيس :

أى التقرب إلى المدعو ، ومخاطبته فى كل ما يحبه ، واشعاره بالأنس ، والعمل على نيل رضاه وكسب وده ، والدخول فى قلبه ، وملاطفته بعذب الحديث ، وتزيين ما عليه من مذهبه فى عينيه .

٣ – التشكيك :

ويلجأ الداعى بعد أن أنس فيه المدعو إلى طرح أسئلة تتصل بالدين يهدف من ورائها ، إلى تشكيك المدعو فى معتقداته ، بأن يسأله عن المحكم والمتشابه ؟ وعن الحكمة وراء الاحرام والطواف ورمى الجمار ؟ ولم كان الغسل من الجنابة ولم يكن من التبول ؟ ويظل يدور به ويحاوره حتى يصل به إلى درجة التشكيك .

٤ – التعليق :

وإذا طلب المدعو إجابة من الداعى عن الأسئلة التى طرحت ، غلق قلبه بطلبها ، وقال له لا تعجل ، فالأمر ليس باليسير ، ودين الله لا يؤخذ إلا بالهدوء والسكينة ، وبذلك يزداد المدعو تعلقا ورغبة فى الإجابة ..... فيقول له الداعى لا أخبرك عما تريده إلا بعد أن تعطينى العهد والميثاق أن يكون ما أقوله لك سراً بينى وبينك .[1]

٥ – الربط :

فإذا أعطى المدعو للداعى العهود والمواثيق ، فإنه يربط لسانه بجعله يردد الإيمان المغلظة التى لا يجرأ على مخالفتها ، كأن يقسم ان امرأته طالق ثلاثة ان هو خان العهد ، ومن ثم يجيب عليه الداعى بما يوقعه فى الشرك ، فإما أن يقبل

(١) انظر كذلك : التأويل الاسماعيلى الباطنى ص١٨ .

التأويل الرمزى المقدم له والذى يبعده عن الدين ، وإما أن يرفض ويكون قد وقع فى أمر آخر هو الشك القاتل والارتياب المميت ..... فالربط اذن هو تعليق نفس المدعو بطلب تأويل أركان الشريعة ، فإما أن يقبل منهم تأويلها على وجه يؤول إلى رفعها ، وإما أن يبقى على الشك والحيرة فيها .[1]

٦ – التدليس :

وهو قولهم للمدعو : إن الظواهر عذاب وباطنها فيه الرحمة ، ويذكرون له قوله تعالى ﴿ فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ﴾ [2] فإذا طلب منه تأويل باطن الباب أخذوا عليه العهود والمواثيق ، ثم ذكروا له من التأويل ما يشكك فى النص أو يلغيه ، وهو بين أمرين : إما أن يقبل تأويلهم ، وبهذا يخرج عن الإسلام ، وإما أن ينفر من تأويلهم لكنه يكتم ما قالوه لأنهم أخذوا عليه العهود والمواثيق .[3]

٧ – التأسيس :

وهو وضع أساس أو مقدمة لا يشك فيها ، ثم استدراج المدعو إلى القول بأن الله تعالى جعل لكل شئ ظاهراً وباطنا ، والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿ وذروا ظاهر الاثم وباطنه ﴾ ..... ويظلون معه فى الظاهر والباطن وتحبيب الباطن إلى قلبه ، ودفعه إلى الشوق لمعرفته وأنه مطلب العلماء ومطمح العقلاء ، أما الظاهر فلا يتمسك به إلا السفلة والجهلاء .[4]

---

(١) انظر كذلك : الفرق بين الفرق ص٢٨٦ .
(٢) من الآية ١٣ من سورة الحديد .
(٣) انظر كذلك : الفرق بين الفرق ص٢٨٧ ، التأويل الاسماعيلى الباطنى ص١٨ .
(٤) انظر فى ذلك : المصدر السابق والصحيفة .

٨ – الخلع والسلخ :

وهو أن يفهم الداعى المدعو بأن المراد هو باطن الشيئ وليس ظاهره ، ويؤكد له ذلك مراراً بحيث يصير الأمر معتقداً عند المدعو فينسلخ عن المعنى الظاهر إلى المعنى الباطن ويعمل به .

والخلع والسلخ مرتبتان متداخلتان ، الأولى ترتبط بالعمل ، والثانية ترتبط بالاعتقاد ، فالمدعو مع تغير اعتقاده فى شيئ ينصرف فى عمله عنه ، فهو إذ يعتقد فى وجود الله تعالى ، فإنه يعمل بما يوافق هذا الاعتقاد وذلك بالإلتزام بالأوامر والابتعاد عن النواهى . فإذا انسلخ عن هذا الاعتقاد ، ارتبط فى عمله بالمعتقد الجديد من كفر وإرتماء فى أحضان الرذيلة وتنافر مع القيم العليا ، .[1]

الباطنية ووجوب التأويل :

إن الدراس لعقائد الباطنية والباحث فيها ، يرى أن أهم عقائدهم التى يقوم عليها مذهبهم هى عقيدة ، وجوب التأويل ، فكل عقائدهم تدور حول هذه العقيدة وتنبثق عنها .

ومع قولهم بوجوب التأويل فى جميع النصوص تأويلاً باطنياً ، فإنهم يطرحون الظاهر وينكرونه ، ويأخذون الباطن ويعتقدونه .

لكن : هل هذا مبدأ يتفق عليه جميع الباطنية ؟ أم أنه يخص الغلاة منهم والمتعصبين ولا يتعداهم إلى المعتدلين ؟ وهل صحيح أنه يوجد بين الباطنية معتدلون مقتصدون ؟ أم أن الغلو طابع الكل وسمة الجميع ؟

---

(١) د/ محمد الأنور : بحوث فى الفرق ص١٥٠ – ١٥٤ بتصرف .

والجواب : العلماء فى ذلك فريقان ، أما أنا فإننى أرجح الاتجاه الأول وأميل إليه ، وهو الاتجاه القائل : إن طرح الظاهر وإلغاءه هو قول جميع الباطنية بلا تفرقة بين غال ومقتصد وأنه لا يوجد بين الباطنية معتدلون .

وقبل أن أدخل فى مناقشة ذلك وبيانه ، فإننى أذكر أن بعض العلماء قد قسم الباطنية – بالنسبة للتأويل الباطنى – إلى فريقين .(١)

فريق يمثله الغلاة ، وهؤلاء يطرحون الظاهر تماما ولا يأخذون به .

وفريق آخر يمثله المعتدلون – بزعمهم – وهؤلاء – مع تقسيمهم اللفظ إلى ظاهر وباطن – يأخذون بالظاهر والباطن معا ويوجبون العمل بهما .(٢)

لكن : هل هذا التقسيم واقعى ؟ هل يتفق مع الحقيقة والواقع من عقيدة الباطنية ؟ أم أن أصحابه ربما خدعوا بكلمات أطلقها أحد دعاة الباطنية أو بعضهم على سبيل التقية والتستر على ما تنطوى عليه نفسه من عقيدة باطلة ومذهب فاسد ؟

إن الأمر يحتاج إلى وقفة ، كما يحتاج – من وجهة نظرى – إلى :

تحليل وتعليق :

يقول أحد الباحثين ، الباطنية – بالنسبة للتأويل الباطنى – فريقان :

الفريق الأول : يذهبون إلى إبطال ظواهر النصوص ، ويقولون إنه لا عبرة بهذه الظواهر ولا تعويل عليها ، ويعتمدون اعتماداً كلياً على المعانى الباطنية والرموز الخفية التى تضمنتها ظواهر الشريعة فى زعمهم ..... .

---

(١) انظر : التأويل الاسماعيلى الباطنى ص٦ ، ٢٤ – ٢٨ .

(٢) الإمام يحيى الطوى : مشكاة الأنوار ص٦٥ – ٦٦ ، وانظر كذلك : الكرمانى – راحة العقل ص٤٣٦ – ٤٣٧ .

والفريق الثانى – وهم جماعة من الأذكياء منهم – لا يرون ابطال ظواهر الشريعة بالكلية ، ويأنفون من مقالة الفريق الأول ، ويقولون : إن ظواهر الشريعة معمول بها فى ظاهرها ، ولها أيضا بواطن هى سرها ولبابها ، فيعملون على الظواهر والبواطن جميعا » .(١)

وهذا الباحث يبدو متفقا تماما مع باحث آخر يشاركه الإتجاه والاعتقاد ، وذلك عندما يفرق بين دعاة الباطنية فى جمهورية مصر العربية ، وبين دعاتهم فى العواصم الأخرى ، ويرى أن دعاة القاهرة من الباطنية كانوا أكثر التزاماً واعتدالاً إذ أعلنوا تمسكهم بالظاهر والباطن وأنه لا استغناء بأحدهما عن الآخر .(٢)

يقول هذا الباحث ، ويقرر اسماعيلية القاهرة أنه إذا كان الظاهر والباطن كالجسد والروح ، فإنه لا قوام لواحد منهما دون الآخر ، فكما أنه لا حياة للجسد بدون الروح ، فلا قيمة للظاهر بدون الباطل ، وكما أن الأرواح لا تلقى مجردة عن الأجسام ، فكذلك المعانى لا تكون مجردة عن الألفاظ ، والباطن لا يعرف ولا يستخلص إلا من الظاهر ، وبهذا تتوطد العلاقة بين الظاهر والباطن ، بحيث لا يمكن الاستغناء عن واحد منهما ، وقد صرح بهذا الدعاة الباطنيون تصريحاً واضحاً لا خفاء فيه » .(٣)

ويستشهد بقول أحد دعاتهم – وهو المؤيد فى الدين – « إن للقرآن ألفاظا مقدرة على معان ملائمة ، ولن يوصل إلى المعانى إلا منها ، ومثال ذلك الأرواح

---

(١) مشكاة الأنوار ص٦٥ نقلا عن : تأويلات الباطنية د/ عبد الوهاب فايد (بحث فى مجلة أصول الدين ١٩٨١م) .

(٢) إلا أنه – وكما سنذكر له – سوف يتراجع عن ذلك ويطن فى صراحة أن هؤلاء ما قالواه إلا خوفا وتقية لأنفسهم .

(٣) التأويل الاسماعيلى ص٢٤ .

والأجساد ، فاللفظ إذا تخلى عن معناه كان كالميتة التى لا منفعة منها ، والمعانى لا تلقى مجردة عن الألفاظ ، كما لا تلقى الأرواح مجردة عن الصور » .[١]

وقول آخر – هو صاحب المجالس المستنصرة – « إن الظاهر والباطن كالروح والجسد ، إذا اجتمعا انقدحت الفوائد وعرفت المقاصد وأدركت النفس بتوسط الحواس ما فى العالم من البدائع ، واستدلت بوجود الصنعة على معرفة الصانع » .[٢]

وقوله « من عبد الله تعالى بظاهر دون باطن ، أو بباطن دون ظاهر ، فهو ممن يعبده على حرف » .[٣]

ويعرض لقول حميد الدين الكرمانى (داعى الباطنية الأكبر فى مصر) فى قول الله تعالى ﴿ أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾[٤] فيبين أن الآية – حسب قوله – جامعة لما يتعلق بالعبادة الظاهرة والباطنة ، وأنها تدعى هؤلاء الذين يقبلون على العبادة الباطنة ولم يقبلوا على العبادة الظاهرة[٥] . ويطلق قائلا « فالكرمانى قد أوجب العمل بظاهر الشريعة ، كما أوجب العمل بالباطن ، وقرر أن ترك أحدهما كفر ببعض الكتاب » .[٦]

ويضيف « وأيضا فهذا هو الداعى الباطنى النعمان بن محمد ، قد ألف كتابه « دعائم الإسلام » شرح فيه أحكام الشريعة الإسلامية حسب الظاهر ، مؤكداً

---

(١) سيرة المؤيد ص٢٣ نقلا عن التأويل الاسماعيلى ص٢٤ .
(٢) المجالس المستنصرة لعلم الإسلام ثقة الإمام ص١٧ .
(٣) المصدر السابق ص٢٩ نقلا عن التأويل الاسماعيلى ص٢٦ .
(٤) من الآية　من سورة .
(٥) لا ندرى ماذا يقصد الكرمانى بالعبادة الباطنة ؟ وكيف تفهم مجردة عن العبادة الظاهرة ؟
(٦) التأويل الاسماعيلى ص٢٧ .

بذلك أهمية الظاهر ، ثم ألف كتاب « تأويل الدعائم » فتناول فيه ما ذكره فى الكتاب السابق بالتفسير والتأويل ، وقد نص فى أماكن متعددة من هذا الكتاب الأخير على أنه لا يجوز انكار الظاهر أو إهماله والاكتفاء بالباطن ، لأن هذا يؤدى إلى الهلاك ، ثم قرر أن النجاة والخلاص إنما يكون بالالتزام بالظاهر والباطن معاً .

بل وقرر أنه لا يجوز مفاتحة المستجيب للدعوة بالباطن قبل رسوخ قدمه فى الظاهر ، لأنه لو فوتح بالباطن قبل رسوخ قدمه فى الظاهر فقد يؤدى ذلك إلى إهمال الظاهر أو تركه بالكلية فيكون من الهالكين » [(١)] ويستشهد بقوله « وقد أهلك كثير من الدعاة كثيراً من المستجيبين فبدؤوهم بالمفاتحة بالباطن ، وأعرضوا لهم عن ذكر الظاهر فطرحوه وتهاونوا بما افترضه الله عليهم فأهملوه فهلكوا من أجل ذلك » . [(٢)]

ويضيف « ونرى القاضى النعمان فى أماكن متعددة من كتابه هذا يوجه كلامه إلى المستجيبين لدعوته مبينا لهم أن كل ما أحله الله تعالى فى الظاهر فهو حلال فى الباطن ، ولا يصح أن يكون حراما ، وما حرمه الله تعالى فى الظاهر فهو حرام فى الباطن ولا يصح أن يكون هو حلالا » . [(٣)]

ويقول « ومن التهاون بالظاهر هلك من هلك ممن عرف الباطن ، فلعن الله من تهاون به ، وأطرحه وازدرى به ، فو الله ما افترض الله فرضا ، ولا عظم أمرا ، إلا ومثل ذلك تعظيمه واجب فى ظاهره وباطنه ، فظاهر الحلال حلال معظم ، وظاهر الحرام حرام مذموم ، وكذلك باطنهما » . [(٤)]

---

(١) المصدر السابق ص٢٨ .

(٢) تأويل الدعائم نقلا عن التأويل الاسماعيلى ص٢٨ .

(٣) المصدر السابق ج١ ص١٦٧ .

(٤) المجالس والمسايرات ج٢ ص٢٣٥ نقلا عن التأويل الاسماعيلى ص٢٨ .

وينتهى إلى تلك النتيجة ، وبهذا يظهر - بكل وضوح - أن الباطنية التى قامت فى القاهرة لم تقل : إن الظاهر كالقشر ، وإن الباطن كاللب بهدف أن يتخلصوا من الظاهر وأحكام الشريعة وأن يتحللوا من الإسلام ، إذ أن هذا لم يحدث من الدعاة الاسماعيليين فى القاهرة ، لأن الروح المصرية لم تكن لتقبل أى خروج عن الإسلام ، بالإضافة إلى أن عامة المصريين كانوا من أهل السنة ، فخاف الدعاة وحرصوا حتى فى كتبهم السرية على التأكيد بالتمسك بظاهر الشريعة ، مخافة من المصريين ونكاتهم الساخرة .

ولئن كان قد حدث من انكار للظاهر على يد الإسماعيلية الباطنية ، فقد حدث ذلك فى « آلموت » [1] إذ أن الإمام أو شيخ جبل « آلموت » أعلن القيامة الكبرى أمام كل المستجيبين فى قلعة « آلموت » وأبطل العمل بظاهر شرائع الإسلام ، ورأى باطنية آلموت أن الظاهر صدفة لابد من كسرها نهائيا . وهذا لا يتم إلا بالتأويل الباطنى ، ثم قالوا : إن المستجيب إذا وصل إلى تلك الدرجة من التأويل ومعرفة الحقائق ، سقطت عنه الالتزامات والتكاليف التى تفرضها الشريعة ، ولذلك فحين وجد مؤرخو الفرق أن باطنية آلموت فى فارس تعلن بطلان الظاهر وتعتنق التأويل الباطنى فقط من دون العمل بالظاهر عمموا هذا الحكم على الباطنية جميعا .

ونحن نستطيع أن نقول : إن ذلك حدث فى « آلموت » أما دعاة الدولة الفاطمية فى مصر ، فقد حرصوا - حتى فى كتبهم السرية التى كتبوها لأتباعهم فقط - على أن يصرحوا بالتزامهم بالظاهر والباطن معا ، وأوجبوا الجمع بين الظاهر والباطن فى الدين ، وحكموا بكفر وضلال من ترك الظاهر أو استهان به ،

---

(١) قلعة من أشهر قلاع طالقان من نواحى قزوين .

أو ترك الباطن أو دفعه ، وقرروا أن النجاة والخلاص إنما هى فى الاقرار بالظاهر والباطن معا واعتقادهما والعمل بهما ، .[1]

وبعد : فمهما كان من طول ذلك النقل أو الاقتباس ، فقد أردت من ورائه تعقب كلمات دعاة الباطنية التى استشهد بها هذا الباحث ، كى يتسنى لنا مناقشة هذا الاتجاه والحكم عليه .

والسؤال الآن :

– هل تكفى هذه الكلمات لتبرير هذا الموقف ، الذى يفرق أنصاره بين عقيدة الباطنية فى مصر ، وبين أترابهم فى عواصم العالم ؟[2]

– هل تصلح هذه الكلمات للقطع بعقيدة باطنية القاهرة ، وأنهم يخرجون عن الخط المتشدد الذى عليه جمهور الفرقة من إلغاء للظاهر وطرح له على نحو ما يقوله هذا الباحث وغيره من ضحايا تصريحاتهم السابقة ؟

– هل تكشف هذه التصريحات عن خفايا نفوسهم ومكنون صدورهم ؟

– ألا يمكن أن تكون هذه التصريحات من برامج التمويه والتضليل التى اعتاد دعاة الباطنية على اذاعتها عندما يقعون تحت تهديد أو يخافون بطش شعب أو سلطان ؟

– وأخيراً : ألا يمكن أن تكون تلك الكلمات تطبيقاً عملياً للمبدأ الذى أقروه واتفقوا جميعا عليه وهو مبدأ التقية ؟

---

(١) د/ عبد العزيز سيف النصر : التأويل الاسماعيلى الباطنى ص ٢٤ – ٢٥ .
(٢) هذا ان كان لهم من وجود أو بقى لهم من أثر .

أنا شخصياً أرجح هذا الأخير ، وأميل إليه ، وأرى أن دعاة الباطنية فى مصر ، عندما يعلن أحدهم عن تمسكه بالظاهر وإيمانه به ، فإنه لا يعبر عن مذهبه الحقيقى أو الشخصى الذى يؤمن به ويدين ، ولا عن الرأى الذى عليه شيوخه وأساتذته من الباطنية ، وإنما يخاطب طوائف الأمة المصرية بما هم عليه ، ويكاشفهم بما علم أنهم يقبلونه ولا يقبلون خلافه ، ويتحملونه ولا يتحملون غيره ، لاسيما وقد علموا أن الروح المصرية لم تكن أبداً لتغفر لهم أى خروج على الدين ، ولم تكن كذلك لتسمح لهم ولا لتقبل منهم أى مساس بعقيدة الإسلام ، ومن ثم فقد جاء هذا الاعلان تقية لا ديانة ، وخوفا لا عقيدة .

لاسيما إذا علمنا أن مبدأ التقية ، كان أحد أصولهم الثابتة والمقررة ، ويتيح لهم هذا المبدأ أن يظهروا خلاف ما يبطنوا ، ويعلنوا نقيض ما يكنوا ، وذلك عندما يشعرون بخطر أو تهديد .

وقد كان مبدأ التقية مبدأ عاماً وأصلاً ثابتاً آمن به جميع الباطنية بلا تفرقة ولا تمييز بين باطنية القاهرة وغيرهم .(١)

وهذا الذى رجحته ومالت إليه ، قد رجع إليه واعتقده أنصار الاتجاه الثانى ممن نقلت عنهم ، وذلك بعد أن عاودوا البحث ودققوا النظر ، وأخضعوا المسألة لمزيد من التمحيص والتدقيق .

فلم يفتأ أحدهم يردد « الباطنية بالنسبة للتأويل الباطنى فريقان :

الفريق الأول : يذهبون إلى ابطال ظواهر النصوص ويقولون أن لا عبرة بهذه الظواهر ولا تعويل عليها .....

---

(١) وهذا الواقع يؤمن به الباحث نفسه ويعتقده بل وينص عليه ، انظر : التأويل الاسماعيلى الباطنى ص٣٠ وغيرها .

والفريق الثانى : لا يرون ابطال ظواهر الشريعة بالكلية ويأنفون من مقالة الفريق الأول ، ويقولون ان ظواهر الشريعة معمول بها فى ظاهرها .....» .

حتى وجدناه – وفى الصحيفة نفسها – يقول « ويبدو أنه لا يوجد فرق واضح بين الفريقين ، لأن القول بالباطن قدر مشترك بينهما ، وأن المقالة التى أعلنها الفريق الثانى إنما كانت على سبيل التقية أو التستر على ما تنطوى عليه نفوسهم من عقيدة باطلة ومذهب فاسد » .

أليس هذا تراجعاً من الباحث حمله عليه إعادة الفكر وتكرار البحث ؟

وهذا التراجع نفسه ، قد فعله شريكه فى الإعتقاد ، وقرينه فى الرؤية والاتجاه .

فلم يكد يعقد مقارنته السابقة بين باطنية القاهرة وغيرهم ، والتى انتهت به إلى أن الأخيرة قد طرحت الظاهر ولم تؤمن به ، بينما أخذ به إخوانهم القاهريون ، حتى وجدناه – وبعد أسطر قليلة – يتراجع عن رأيه ، ويعلن عن خلل تلك المقارنة ، ويقرر – فى ثقة ويقين – أن إنكار الظاهر هو مذهب جميع الباطنية فى جميع الأمصار ، وأن عقيدتهم فى ذلك واحدة ، وأن كلامهم عن الظاهر إنما هو من باب التدليس والخداع ، وبدافع من الخوف والتقية .[1]

فهو يقول « إننى أخالف هذه الفرقة – حتى ما يسمون أنفسهم بالمعتدلين [2] – فى هذه الثنائية التى جعلوها للدين ، وأرى أن كثرة كلامهم عن

---

(١) وقد جاءت عباراته فى ذلك صريحة لا غموض فيها ولا إبهام ، وذلك كما يتضح من تصريحاته التالية .

(٢) فهم الذين يطلقون على أنفسهم هذا الوصف ، وليس المؤلف هو الذى يراهم كذلك معتدلين وفى هذا التعبير ما فيه من معانى الرفض والانكار لوصف الاعتدال مضافا إلى الجميع .

الظاهر والباطن وأهمية كل منهما ، إنما هو من باب التدليس والخداع للمستجيبين لدعوتهم ، وحتى لا يثور عليهم الناس ويتهمونهم بالكفر وتضيع السلطة من أيديهم .

والدليل على ذلك ، أنهم إذا وجدوا الفرصة سانحة ، والأرض ممهدة ، والقلوب متقبلة لآرائهم ، فإنهم يكشفون عن أهدافهم من ابطال الظاهر والغاء الشريعة . (١)

كما يجب أن لا نغفل – والكلام مازال للباحث – عن مبدأ التقية عندهم ، الذى أتاح لهم إخفاء عقائدهم التى تخالف ما جاء به الإسلام فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وما كلامهم عن الباطن إلا فتحاً لباب التأويل على مصراعيه ، حتى يتأتى لهم تحريف كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، وهذا ما قد حدث بالفعل على يد جميع الاسماعيلية الباطنية (٢) ، وكانت تأويلاتهم لكتاب الله تعالى من قبيل التحريف الذى ذمه الله تعالى وذم قائليه حيث قال : ﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ﴾ . (٣)

والحقيقة – وما زال الكلام للمؤلف – أن الاسماعيلية الباطنية جميعا كانوا طلاب سلطة وتحكم فى رقاب البشر (٤) ، وقد استغلوا الدين حتى يخضعوا الناس

---

(١) تلك هى حقيقة الباطنية ، وهذا هو هدفهم جميعا فى عين المؤلف .

(٢) تلك هى اعترافات المؤلف ، الباطنية جميعاً يبغون من وراء دعوى الباطن تحريف كلام الله وكلام رسوله ﷺ .

(٣) الآية ٧٥ من سورة البقرة .

(٤) اعتراف بعد اعتراف ، وتأكيد يليه تأكيد ، مع ملاحظة أن الاسماعيلية فى اصطلاح المؤلف هى الباطنية ، والباطنية هى الاسماعيلية ، فهو القائل : وألقاب هذه الفرقة ، هى الاسماعيلية ، الباطنية ، السبعية ، التعليمية ، القرامطة ..... ، فكلها – من وجهة نظره – ألقاب لفرقة واحدة .

لهم ..... ولم يجدوا لهم مدخلا فى الدين بالزيادة أو النقصان إلا من باب التأويل الذى هو مدخلهم لتحريف النصوص الدينية ، ومن هنا كان تقسيمهم للدين إلى ظاهر وباطن ، .[1]

فهذا النص للؤلف نقف منه على أمور أهمها :

أولا : أن كلام الباطنية عن الظاهر إنما هو من باب التدليس والخداع .

ثانياً : أن مبدأ « التقية » أتاح لهم إخفاء عقيدتهم فى التنصل من الظاهر وانكاره .

ثالثا : أنهم إذا وجدوا الظروف مهيأة ، والعقول مستعدة لتلقي باطلهم فى إلغاء الظاهر ، فإنهم لن يترددوا فى إظهاره والإعلان عنه .

رابعاً : أن نزعتهم فى التأويل الباطنى ليست إلا تحريفا للكلم عن مواضعه بغية إفساده وإلغاء المراد منه .

خامساً : - وهو المهم فى هذا الباب - أن هذه العناصر - وباعتراف المؤلف - قد حدثت بالفعل من جميع الباطنية بلا تفرقة بين باطنية القاهرة وغيرهم .

سادساً : وهذا الإعتراف من الكاتب ليس إلا تراجعاً منه حمله عليه إعادة البحث وتكرار النظر .

وأقول : ليس إلا تراجعاً ، لأنه لا يمكن - من وجهة نظرى - الجمع بين كلامه السابق واللاحق إلا هكذا .

---

(١) د/ عبد العزيز سيف النصر - التأويل الاسماعيلى ص٣٠ - ٣١ بتصرف .

وهذا الفهم أو الحمل – لكلام الباحث – لا يتعارض مع قوله – بعد أن ذكر أقوالاً للباطنية – ، وبهذا يظهر بكل وضوح أن الباطنية التى قامت فى القاهرة ، لم تقل : إن الظاهر كالقشر ، وإن الباطن كاللب ، بهدف أن يتخلصوا من الظاهر وأحكام الشريعة ، وأن يتحللوا من الإسلام ، إذ أن هذا لم يحدث من الدعاة الباطنين فى القاهرة ، لأن الروح المصرية لم تكن لتقبل أى خروج عن الإسلام ، بالإضافة إلى أن عامة المصريين كانوا من أهل السنة ، فخاف الدعاة ، ومن ثم حرصوا حتى فى كتبهم السرية على التأكيد بالتمسك بظاهر الشريعة مخافة من المصريين ونكاتهم الساخرة ، .[1]

أقول : لا يتعارض هذا القول مع استنتاج أثبتناه ، أو فهم توصلنا إليه ، فإن هؤلاء – حسب قوله هو ، وباعترافه هو – لم يقولوا ما قالوه من إيمان بالظاهر واعتراف به إلا خوفا وتقية ، وتستراً على ما فى نفوسهم من عقيدة باطلة .

ويسهد لذلك ويدل عليه – من طريق واسع – قوله ، صحيح أن التأويل الباطنى قد خف من غلوائه فى العصر الفاطمى بمصر ، وأعلن تمسكه بالظاهر والباطن معا ، وأعلن أصحابه استنكارهم للغلاة ، ولكن ذلك راجع إلى أن البيئة المصرية كانت تخالف بيئة فارس ، فاصطر الدعاة الاسماعيليون إلى التظاهر بتخفيف تأويلاتهم [2] ، وإعلان تمسكهم بظاهر سريعة الإسلام .

ومما يؤكد هذا – والكلام للمؤلف – أن الدعوة الاسماعيلية بعد انتقالها من مصر إلى اليمن ، وبعد أن دخلت دور التستر مرة أخرى ، عادت إلى الغلو ، .[3]

---

(١) المصدر السابق ص٢٤ – ٢٥ .

(٢) لا أدرى كيف اعتبر الباحث هذا الإعلان الذى صدر عن باطنية القاهرة ، استنكاراً ورفضاً للغلو ، بعد أن أكد – مراراً وتكراراً – أن باعثه هو الاضطرار ، وأن دافعه هو التظاهر ، وأن منطقه كان هو التقية ؟ إنه لأمر يدعو إلى الدهشة حقا .

(٣) التأويل الاسماعيلى ص٦ . وعجبا كل العجب للباحث ، يدافع ثم يهاجم الجميع ، فقد دافع عن باطنية القاهرة ووصفهم بالإعتدال ، ثم عاد ليسمهم بالتظاهر ويرميهم بالغلو .

فالخلاصة التى أنتهى إليها – بعد هذا النقاش والتحليل – لكلام هذا الباحث وسلفه – أن الباطنية – بالنسبة للتأويل الباطنى – فريق واحد لا فريقان ، وأن إلغاء الظاهر قاسم مشترك بين الجميع ، وقدر مشترك بين الكل ، وذلك بغرض ، انتزاع المعتقدات الظاهرة من نفوس الخلق ، كما هو تعبير حجة الإسلام الغزالى فى فضائحهم (فضائح الباطنية ص٤٠) .

لكن : ما دليلهم على ذلك ؟ وما حجتهم فى فكرة الظاهر والباطن تلك ؟

سوف أجيب على ذلك بعد أن أقدم أمثلة لتأويلاتهم الباطنية .

أمثلة من تأويلات الباطنية :

يقول الداعى الباطنى الأكبر (المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى) ، إن للقرآن معان سوى ما تتداوله ألسنة العامة [1] مما يستنبطونه بحولهم وقوتهم من دون الرجعى فيه إلى أهل الاستنباط . ممن قال الله تعالى فيهم ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ .[2]

فما هى تلك المعانى الخفية التى لا يعلمها إلا أهل الاستنباط والإلهام من الباطنية بزعمهم ؟

والجواب : للباطنية فى هذا الباب أمثلة عديدة تصور مسلكهم فى التأويل أصدق تصوير ، وتكشف عن حقيقة هذا المخطط ، وأنه يهدف إلى إلغاء الدين ومحو الشرائع .

هذه الأمثلة ورد بعضها فى كتب الباطنية ، وجاء بعضها الآخر على ألسنة

---

(١) وكما أسلفت : فإن العامى فى إصطلاح الباطنية هو كل من ليس منهم .

(٢) سيرة المؤيد ص١٦ نقلا عن التأويل الاسماعيلى ص٢٢ .

أتباع لهم انشقوا عنهم ، بعد أو وقفوا على حقيقة الحركة ، وتبينوا أسرارها ، وتأكد – لهم عن كثب – أنها دعوة إلحادية تفسر الشرائع وفق هواها ، وتدفع بمعتنقيها إى الإنحلال والإنسلاخ كلية عن الإسلام .

وسوف أذكر بعضاً من هذه الأمثلة ، وهى كما يلى :

١ – الصلاة والزكاة :

للصلاة والزكاة معناهما الشرعى المعروف ، فالصلاة : أفعال وحركات مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم .

وكذلك الزكاة : إخراج الغنى قدراً من المال مساعدة للفقير .

لكنهما – فى التأويل الباطنى – لهما معنى آخر ، هو ولاية محمد وعلى ، فمن ولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة .

« وهكذا يسقطون ركنين من أركان الإسلام بدعوى أن المعنى الحقيقى للصلاة والزكاة هو ولاية محمد وعلى وهو المعنى المراد ، وليس الذى عليه السذج من الناس من تأدية الفرائض الخمس وأداء الفقراء حقهم » .[1]

٢ – الخمر والميسر :

كذلك الخمر والميسر الذان نهى الله تعالى عنهما ، لهما – فى دعوى الباطنية – ظاهر وباطن .

فظاهرهما : الشراب المسكر المصنوع من العنب والزبيب والحنطة ، ولعب القمار المعروف ، وهذا الظاهر غير المراد ، وإنما المراد هو المعنى الباطن وهو

(١) محمد بن مالك : كشف أسرار الباطنية ص٢٠٣ .

ولاية أبى بكر وعمر [1] ، فإذا عرف الشخص ذلك الباطن والتزمه سقط عنه الظاهر ، وانحط عنه التكليف ، فلم يعد مطالبا به ، فلا عليه إن هو شرب الخمر ولعب الميسر ما دام قد ترك ولاية أبى بكر وعمر ، فذلك هو المحرم ولا محرم غيره .[2]

٣ – الصوم :

وكذلك الصوم الذى شرعه الله تعالى لحكمة هى التقوى [3] ، امتدت إليه يد الباطنية الملحدة فصرفته عن معناه وأولته بالكتمان ، أي كتمان الأئمة فى وقت استتارتهم خوفا من الظالمين .

وبتفسير الصوم الذى هو الإمساك عن الأكل والشرب والشهوة من طلوع الفجر إلى غروب الشمس – بالكتمان يسقطون الركن الثالث من أركان الإسلام ، [4] بعد الشهادة

٤ – الطهارة والجنابة ما هما ؟

للطهارة – وكذلك الجنابة (أو الحدث الأكبر) معنىً لا يجهله أحد ، لكنهما – فى تأويلات الباطنية – لهما معنى آخر ومفهوم مختلف .

فالطهارة ، طهارة القلب والمؤمن بذاته طاهر ، والجنابة هى مولاة الأضداد

---

(١) لأنهما – فى زعم الباطنية – خالفا علياً وأخذا الخلافة دونه .

(٢) انظر : كشف أسرار الباطنية ص٢٠٤ .

(٣) وذلك كما قال سبحانه ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

(٤) انظر : كشف أسرار الباطنية ص٢٠٣ نقلاً عن بحوث فى الفرق د/محمد الأنور ص١٥٧ .

أضداد الأنبياء والأئمة .... ومعنى ﴿ وإن كنتم جنبا فاطهروا ﴾ معناه : فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا ، .[1]

ومن الباطنية من قال فى الجنابة ، إن معناها : مبادرة المستجيب بافشاء السر إليه قبل أن ينال رتبة الاستحقاق .

ومعنى الغسل : تجديد العهد على من فعل ذلك .

ومعنى الطهور : هو التبرى والتنظف من اعتقاد كل مذهب سوى متابعة الإمام ، .[2]

٥ – زكاة الفطر :

زكاة الفطر معروفة ، وتأويلها فى الباطن : أنه يجب على جميع من صار إلى دعوة الحق ، فكاك رقابهم بأداء الواجب إلى من يلى أمرهم من الدعاة ، [3] ، ومعنى ذلك أن دعوة الحق – وهى دعوة الباطن – دين فى عنق كل مستجيب عليه أن يؤدى حق دعاتها بطاعتهم والخضوع لهم خضوعا تاما ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾ [4] .

٦ – تأويل قوله تعالى ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ .[4]

يبين لنا شيخ الباطنية (القاضى النعمان) ما فى هذه الآية من تأويل .

---

(١) كشف أسرار الباطنية ص٢٠٣ .
(٢) الشاطبى : الموافقات ج٣ ص٢٣٥ .
(٣) القاضى النعمان : تأويل الدعائم ج٢ ص١٣١ بتصرف .
(٤) من الآية ٤١ من سورة الأنفال .

فيذكر أن خمس الغنائم – فى الباطن – هو « علم من الله تعالى جعل استنباطه واستخراجه ، واظهار ما فيه من باطن الحكمة والتأويل لأوليائه ، ومن أقامه لذلك بأمره » [١] ، وأن المراد باليتامى – فى الباطن – الأئمة ، وسموا يتامى لأن كل واحد منهم فى عصره فرد منقطع القرين » [٢] .

« والمراد بالمساكين – فى الباطن – أولياء عهود الأئمة فى حياتهم وحججهم [٣] ، والذين تصير إليهم الإمامة من بعدهم .

وسموا مساكين : لأنهم محتاجون مفتقرون إلى معروف الأئمة ظاهراً وباطناً ، لا يملكون من ذلك إلا ما ملكوهم وأعطوهم ، خاضعون مستكينون إليهم .

وابن السبيل – فى الباطن – هم طبقات الدعاة إلى أولياء الله .

وقيل لهم أبناء السبيل ، لتصرفهم وتفرقهم فى جزائر الأرض وأقاليمها ، يدعون إلى أولياء الله من استجاب لهم من أهلها » . [٣]

٧ – تأويل الملائكة والشياطين :

وفى « التبصير فى الدين » يذكر الاسفرايينى عن الباطنية أنهم يقولون : إن الملائكة – فى الباطن – هم دعاتهم ، والشياطين هم ليسوا على مذهبهم من المسلمين ؟ [٤]

وبعد : فهذه أمثلة من تأويلات الباطنية ، كما جاءت فى كتبهم ، وكما رواها المؤرخون لهم ، ولنا عليها التعقيب التالى :

---

(١) ، (٢) تأويل الدعائم ج٢ ص ١٠٥ – ١٠٦ .
(٢) الحجج – عندهم – هم دعاة الامام وعماله فى الأمصار .
(٣) تأويل الدعائم ج٢ ص١٠٦ .
(٤) راجع : التبصير فى الدين ص٨٦ .

تعقيب لابد منه :

لا يخفى على من عنده – ولو ذرة من العقل – أن هذه التأويلات ، لا تعدو أن تكون ضرباً من ضروب الهذيان ، وفناً من فنون الضلال ، وذلك كما يحب الإمام الشاطبى أن يسميها .

وقد فتحت الباب واسعاً أمام العصاة والمنحرفين ليقولوا فى كتاب الله بغير علم ، كما فتحت الباب أمام كل ذى فكر ضال ليلحدوا فى دين الله وفى آياته .

وانطلق هؤلاء وأولئك – وعلى أثر من صنيع الباطنية وعلى أساس من هذه الحرية فى الدين وفوضى التأويل – ، يؤولون كثيرا من المعجزات الكونية ، وما ورد بشأنها من نصوص القرآن والسنة .

– ففلق البحر لموسى : مد وجزر .

– ورفع عيسى إلى السماء : صعود للروح فقط .

– وإسراء محمد ومعراجه : بالروح لا بالجسد .

– والبعث روحانى لا جسمانى .

– وكذلك النعيم والعذاب ، روحانيان لا جسمانيان ، أى للروح لا للجسد .

– والعرش والكرسى ، عبارة عن عظم الملك وجلالة السلطان .

– والميزان : تمثيل للعدالة الالهية .

– والجنة والنار : كناية عما يحدث للأرواح من سعادة أو شقاء ، ولذة أو ألم

– والجن والشيطان : خرافة .

- وتأثيرهما على الإنسان : وهم وتخييل ..... وهكذا » .[1]

وكان ذلك - فى معظمه - إمتداداً لفكر الباطنية وانطلاقاً من نظريتهم فى التأويل ، وفكرتهم فى الظاهر والباطن والمثل المثول [2] ، فهى - من وجهة نظرى - الأساس الذى بنى عليه هؤلاء وأولئك .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه التأويلات الباطنية - والتى ذكرت طرفا منها - أقل ما يمكن أن يقال فيها ، أنها لا تستقيم مع اللغة ولا مع الشرع .

- فأي لغة أو شرع ، يسمح لهم بتفسير الجنابة بأن معناها الجهل بالعلم الباطن ؟ وأ الطهارة هى تعلم هذا العلم المزعوم ؟[3]

- أى لغة أو شرع سمح لهم بتفسير اليتامى والمساكين فى قوله

---

(١) عبد الرحمن المراكبى : قضية التأويل فى الفكر الإسلامى ص٢٣ بتصرف .

(٢) لم يقتصر الباطنية - فى فكرة الظاهر والباطن - على نصوص الدين وآيات القرآن فحسب ، بل عمموا ذلك فى كل المخلوقات وجميع الأجناس .
يقول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى « إن الله قسم ما خلق قسمين ، ظاهراً جلياً كالدنيا وكأجسادنا ، وباطنا خفيا كالآخرة وأرواحنا » (سيرة المؤيد ص٢٩) .
ويقول القاضى النعمان « إنه لابد لكل محسوس من ظاهر وباطن ، فظاهره ما يقع عليه الحواس ، وباطنه ما يحويه ويحيط العلم به ، كالإنسان وهو شخص واحد ، إلا أنه جسد وروح ، فالجسد هو الظاهر - فإنه ظاهر للعيان - والروح هو الباطن ، فإنه خفى غير مرئى ، والظاهر مثل والباطن ممثول ، وجسم الإنسان مثل ونفسه ممثول ، والدنيا مثل والآخرة ممثول .
فالمثل (الظاهر) هو المظهر الخارجى ، والممثول (الباطن) هو الحقيقة المختفية وراء الظاهر ، والشريعة هى المثل والحقيقة هى الممثول ، والممثول - أو الباطن - إنما يعرف ويستخلص من المثل أو الظاهر ، ولا يكون ذلك إلا بالتأويل الباطنى ، وهذا ما يعرف عند الباطنية بنظرية المثل والمثول (انظر : أساس التأويل ص٢٨ ، المجالس المؤيدية ج١ ص٨٤) .

(٣) انظر : كشف أسرار الباطنية - لمحمد بن مالك ص١٠١ .

تعالى ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيئ فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين ﴾ بالأئمة من الباطنية والأولياء منهم ؟

– أى لغة أو شرع أباح لهم تفسير الصلاة والزكاة بولاية محمد وعلىّ ؟ وتفسير الخمر والميسر بولاية أبى بكر وعمر ؟ وتفسير الصيام بكتمان الأئمة ؟

– أى لغة أو شرع سمح لهم بتفسير الطير فى قوله تعالى ﴿ وأما الآخر فيصلب فتأكل منه الطير من رأسه ﴾ بالدعاة ؟ وكذلك الطير فى قول الله تعالى ﴿ وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير ﴾ [1] يعنى – فى التأوسل الباطنى – أتباعهم من أهل الباطن والدعاة ، فأى علاقة يلحظها الباطنية بين المعنى الذى نقلوه إليه وما نقلوه منه ؟

– ثم أى لغة أو شرع سمح لزعيم الباطنية الأكبر النعمان بن محمد التميمى بتفسير « البيوت » فى قول اللع تعالى ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكنا وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ﴾ [2] بأولياء الله أى الأئمة ؟ وتفسير « السكن » – فى الباطن – بما تسكن إليه قلوب المؤمنين من علم أولياء الله وهو علم التأويل ؟ وتفسير الجلود والأصواف والأوبار – فى الآية [3] – بالظاهر الذى يعمل به إلى حين سقوط الأعمال بحضور الساعة ؟ وأى علاقة بين هذا وذاك ؟ [4]

أى لغة أو شرع سمح له بتفسير « الماء » فى قوله تعالى ﴿ وأنزلنا من

---

(١) من الآية ١٧ من سورة النمل .
(٢) من الآية ٨٠ من سورة النحل .
(٣) ﴿ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين ﴾ .
(٤) انظر : تأويل الدعائم ج٢ ص١١٣ .

السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون ﴾ [1] بالعلم الذى يصدر عن الأئمة ؟ وأن النبات – فى الباطن – هم المؤمنون الذين تنبتهم حكمة أولياء الله ويختلفون فيما بينهم كما تختلف أصناف النبات والأثمار ؟ [2]

– أى لغة أو شرع سمح له بتفسير « القتل » فى قوله تعالى ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها ﴾ [3] بأنه « ترك المفيد بلا فائدة » ؟ [4]

– وقتل الأولاد فى قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ [5] بأنه « ترك الداعى أهل دعوته – وهم فى الباطن أولاده – لا يفيدهم » [6] ؟ و« القتل بالحق » ؟ فى قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ [7] بأنه قطع الإمام – أو من له الأمر – مادة العلم عن الداعى الذى فعل ذلك ؟ .....[8] فأى مناسبة بين الألفاظ الواردة فيه وبين المعنى المؤول إليه حتى يقال إنه المراد ؟ أين المعنى الجامع ؟ وأين الشاهد اللغوى أو الشرعى ؟

---

(١) الآيات ١٨ ، ١٩ من سورة المؤمنون .
(٢) انظر : تأويل الدعائم ج٢ ص١٢٩ .
(٣) من الآية من سورة النساء .
(٤) انظر : تأويل الدعائم ج٢ ص٩٨ .
(٥) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٦) تأويل الدعائم ج٢ ص٩٨ .
(٧) من الآية ٣٣ من سورة الاسراء .
(٨) تأويل الدعائم ج٢ ص٩٩ .

من الواضح أنه لا يوجد ذلك الشاهد ، وأن الباطنية راعوا فى صحة تلك التأويلات عنصراً واحداً هو قول الإمام المعصوم بزعمهم ، ولم يلتفتوا إلى شيئ آخر من موضوعات اللغة وقوانينها ، ولا من شاهد الشرع ودليله ، فكانت تأويلاتهم لذلك فاسدة باطلة .

لكن : إذا كانت هذه التأويلات باطلة ، وقد لجأ إليها الباطنية ، فمن الواضح أنهم لم يلجأوا إليها من فراغ ، بل كانت لهم – نحو فكرة التأويل الباطنى أو التفسير الرمزى – أدلة ظنوها تنصر مذهبهم ، وشبها تعلقوا بحبالها ، فما هى تلك الأدلة وهل تشهد لهم ؟

هذا ما سنتعرف عليه ونناقشه وذلك من خلال ؟

الباطنية ينتصرون لمذهبهم :

حاول الباطنية – فى سبيل الانتصار لمذهبهم فى التأويل الباطنى (الظاهر والباطن) – أن يستدلوا على صحة ذلك بآيات القرآن الكريم وأقوال النبى – ﷺ .

وسوف نتعرف على أشهر هذه الأدلة وأقواها عندهم ، ثم نقوم بمناقشتها والتعليق عليها .

أولاً : أدلتهم من القرآن الكريم :

– استدل الباطنية بعدد من الآيات منها تلك التى ذكر الله فيها « الباطن » أو ورد فيها مادة « بطن » ، وذلك كما يقول داعيهم الأكبر النعمان :

« قد ذكر سبحانه الباطن فى مواضع كثيرة من كتابه ، فقال جل ثناؤه

﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ وقال ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾ .[1]

- كما استدلوا بالآيات التى ذكر الله فيها « الأمثال » أو ورد فيها ذكر المثل .

يقول القاضى النعمان « فى آيات كثيرة من كتابه سبحانه ذكر للأمثال والباطن والتأويل ، وذلك معروف فى لسان العرب ، الذى به القرآن وخاطبهم بلسانهم فيه » .[2]

ويستشهد بمثل قوله سبحانه ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾[3] وقوله ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[4] وقوله ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تتبيرا ﴾[5] وقوله ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ﴾[6] .

- كما استدلوا بالآيات التى ذكر الله فيها « التأويل » ، وقالوا : إن نص الكتاب ناطق بأن للقرآن تأويلا[7]، فقد قال الله تعالى ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ﴾[8] .

---

(١) أساس التأويل ص٣٢ .
(٢) المصدر السابق ص٣١ .
(٣) من الآية ٤٥ من سورة إبراهيم .
(٤) الآية ٤٣ من سورة العنكبوت .
(٥) الآية ٣٩ من سورة الفرقان .
(٦) الآية ٢٧ من سورة الزمر .
(٧) انظر : سيرة المؤيد ص١٦ .
(٨) من الآية ٧ من سورة آل عمران .

وقال ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ [1] .

وقال ﴿ ولنعلمه من تأويل الأحاديث ﴾ . [2]

- كما استدلوا بالآيات التى ذكر الله فيها « الحكمة » [3] ، من قبيل قوله سبحانه ﴿ يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً ﴾ . [4]

وقوله ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ .

وقوله ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ﴾ وقالوا : إن الحكمة فى هذه الآيات يراد بها الباطن وهو علم التأويل . [5]

- كما استدلوا بالآيات التى لايمكن - فى زعمهم - حملها على ظاهرها .

وذلك من قبيل قوله تعالى - فى وصف بيته الحرام - ﴿ من دخله كان آمنا ﴾ مع أن البيت يدخله الآمن والخائف ، فيتعين تأويل ذلك النص وصرفه عن ظاهره ، حتى لا يلزم الكذب فى خبره تعالى . [6]

وكذلك قوله تعالى - فى وصف كتابه الكريم - ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ .

---

(١) من الآية ٥٣ من سورة الأعراف .
(٢) من الآية ٢١ من سورة يوسف .
(٣) انظر : مشكاة الأنوار الهادفة لقواعد الباطنية الأشرار ص١١٥ .
(٤) الآية ٢٧٩ من سورة البقرة .
(٥) انظر : مشكاة الأنوار ص١١٥ .
(٦) المصدر السابق ص١١٥ ، ١٢٨ .

فهذا النص أيضا يتعين حمله على المعنى الباطن ، وإلا لزم الكذب فى خبره تعالى ، إذ كتاب الله يمسه الطاهر وغير الطاهر .[1]

ثانياً : أدلتهم من السنة :

كذلك استدل الباطنية على مذهبهم فى التأويل الباطنى بجملة من الأقوال نسبوها إلى النبى - ﷺ - معظمها لم يصح عنه عليه السلام ، وما صح منها استعملوه فى غير موضعه .

فقد استدلوا بما ورد عندهم معزواً إلى رسول الله - ﷺ - « إن للقرآن ظهرا وبطنا ، ولبطنه بطن إلى سبعة أبطن » .[2]

وما روه عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى عليه السلام أنه قال « إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف ، لكل آية منها ظهر وبطن ، ولكل حد مطلع » .[3]

وساقوا أحاديث يستشهدون بها على أن علم التأويل مقصور على الأئمة .

فقد ذكروا أن النبى -ﷺ - قال : « أنا صاحب التنزيل وعلى صاحب التأويل »[4] وأنه قال « أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد العلم فاليأت الباب » .[5]

---

(١) المصدر السابق ص١١٥ ، ١٢٨ .

(٢) بحار الأنوار : عباس قمى ج٢ ص٤٤ ، والحديث أخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث ابن مسعود (انظر : إحياء علوم الدين للغزالى ج١ ص١١٧ هامش) .

(٣) المؤيد فى الدين : سيرة المؤيد ص٣٢ .

(٤) المصدر السابق ص٢٠ .

(٥) راحة العقل ص٣٥٤ .

وأنه قال – فى دعائه لابن عباس « اللهم فقه فى الدين وعلمه التأويل » [1] وفى رواية « اللهم علمه الحكمة وتأويل القرآن » .

وأنه قال « تعلموا من عالم أهل بيتى – أو من عالم تعلم من أهل بيتى – تنجوا من النار » .[2]

وأنه قال « إنى تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتى أهل بيتى ، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض » .[3]

وأنه قال – فى علىّ – « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار » .[4]

كما نسبوا الى على رضى الله عنه أنه قال « سلونى قبل أن تفقدونى ، فو اللذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لا تسألونى عن علم ما كان وما يكون ، وعن علم ما لا تعلمون ، إلا أخبرتكم به ، علمنيه الصادق عن الروح الأمين عن رب العالمين » .[5]

إلى غير ذلك من نصوص اعتبرها الباطنية – مع ما سبقها من الآيات – أدلة وشواهد على قولهم فى الباطن والمثل والمثول ، فهل تشهد لهم ؟ أو تؤيد مذهبهم ؟ هذا ما سنقف عليه من خلال هذه المناقشة .

---

(١) سيرة المؤيد ص١٦ .
(٢) انظر : تأويل الدعائم ج١ ص٦٧ ، سيرة المؤيد ص١٧ ، المجالس المؤيدية ص١١٩ .
(٣) سيرة المؤيد ص١٧ .
(٤) انظر : الملل والنحل ج١ ص١١٨ ضمن كتاب الفصل لابن حزم ، شرح المطالع ص٢٣٥ ، شرح عقيدة التوحيد ص٢٢٩ ، المجالس المؤيدية ص٢٦ .
(٥) النعمان : المجالس والمسايرات ج٢ ص٨٨ .

أدلتهم فى الميزان :

لا نبالغ إذا لقنا : إن هذه النصوص ليس فيها دليل ولا حتى شبه دليل ، وذلك كما يتضح من الاستعراض التالى :

أولاً : الآيات التى ذكر الله فيها الباطن :

أما هذه الآيات – والتى هى من قبيل قوله تعالى ﴿ وذروا ظاهر الاثم وباطنه ﴾ وقوله ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ فليست محل استشهاد لهم . ذلك أن الله تعالى – فى الآية الأولى – يحذر عباده وينهاهم عن الذنوب جميعا ، وعن المعاصى مطلقا ، ما ظهر منها وأعلن ، وما خفى منها واستتر ، ما كان بفعل القلب وذلك كالغل والحقد والحسد ، وما كان من عمل الجوارح ، مثل الكذب ، القتل ، الزنا ، وشهادة الزور ..... الخ .[1]

وأما قوله تعالى ﴿ وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ﴾ فإن الله تعالى يبين لعباده جميل فضله عليهم ، وعظيم إحسانه إليهم ، حيث أسبغ عليهم نعما كثيرا ، منها الظاهر المشاهد ، ومنها الخفى الباطن ، فماذا فى ذلك من دليل على ما يدعون ؟[2]

ثانياً : الآيات التى ذكر الله فيها « الأمثال » :

أما ما استدل به الباطنية من آيات المثل والأمثال ، من قبيل قوله سبحانه ﴿ وكلا ضربنا له الأمثال ﴾ وقوله ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ وقوله

---

(١) انظر : تفسير الآية فى الجامع لأحكام القرآن – للقرطبى ، التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للفخر الرازى .

(٢) نفس المصدر السابق .

﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ وقوله ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ ..... الخ فإننا إذا استعرضناها واحدة واحدة ، لا نجد فيها شاهداً على مدعى الباطنية فى الظاهر والباطن والمثل والمثول .

فقوله تعالى ﴿ وضربنا لكم الأمثال ﴾ يراد به ما أورده الله فى القرآن مما يعلم به أنه قادر على الإعادة كما قدر على الابتداء ، وقادر على التعذيب المؤجل كما يفعل الهلاك المعجل ، [1] يدل على ذلك جو الآية وسياقها ، فقد بدأ السياق بقوله تعالى ﴿ وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ﴾ وقوله تعالى ﴿ وكلاً ضربنا له الأمثال وكلاً تبرنا تتبيراً ﴾ أى بينا لهم الحجج ووضحنا لهم الأدلة ، وذكرنا لهم القصص العجيب الزاجر عما هم عليه من الكفر والمعاصى . وقوله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس ﴾ أى هذه المثل وغيرها من الأمثال التى فى القرآن نضربها للناس تنبيهاً لهم وتقريبا لما بعد من أفهامهم ﴿ وما يعلقها إلا العالمون ﴾ أى وما يفهمها ويتعقل الأمر الذى ضربناها له ولأجله ﴿ إلا العالمون ﴾ أى الراسخون المتضلعون فى العلم ، فهم المتدبرون المتفكرون لما يتلى عليهم ..... وقوله تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ﴾ أى بينا للناس ما يحتاجون إليه فى أمر دينهم [2] ، وذلك بضرب الأمثال ﴿ لعلهم يتذكرون ﴾ فإن المثل يقرب المعنى إلى الافهام ، كما قال تعالى ﴿ ضرب لكم مثلا من أنفسكم ﴾ أى تعلمونه من أنفسكم تصديقاً لقوله تعالى ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾ ، وقد ضرب الله تعالى فى الآية التى

---

(١) التفسير الكبير – نقلاً عن التأويل الاسماعيلى ص٣٢ بتصرف .

(٢) فهو كقوله تعالى ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شئ ﴾ أى من شيئ يحتاجون إليه ، انظر : الجامع ج١٥ ص١٦٤ .

بعدها مثلا للمشرك والموحد فقال ﴿ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلان سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ .(١)

أما ما استدل به الباطنية من الآيات التى ذكر الله فيها « الحكمة » من قبيل قوله سبحانه ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ ، ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة ﴾ ، ﴿ يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ﴾ وقولهم : إن الحكمة فى هذه الآيات يراد بها باطن الكتاب وتأويله ، فهو استدلال فى غير موضعه ، واستعمال للايات فى غير ما سيقت له .

ذلك أن « الحكمة » يختلف معناها والمراد منها ، باختلاف سياقها وجوه ، أى جو هذا السياق .

فمرة يراد بها السنة ، ومنه قوله تعالى ﴿ وأنزل عليك الكتاب والحكمة ﴾ وقوله ﴿ ويعلمهم الكتاب والحكمة ﴾ .

ومرة تذكر الحكمة ويراد بها الاصابة فى القول والعمل ووضع الأمور فى مواضعها (٢) ، ومنه قول الله تعالى ﴿ يؤت الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى حيرا كثيرا ﴾ .

– وأين الحكمة بهذا المعنى فى فكر الباطنية بعد أن أسقطوا ركنين من أعظم أركان الإسلام هما الصلاة والزكاة ، وفسروهما بمولاة محمد وعلىّ ؟

---

(١) انظر : التأويل الاسماعيلى د/ عبد العزيز سيف النصر ص٣٢ – ٣٣ وانظر تفسير الآيات فى التفسير العظيم لابن كثير وغيره .

(٢) انظر : القاموس المحيط – ج٤ ص٩٨ ، ابن منظور : لسان العرب ج٢ ص٩٥١ – ٩٥٤ ، أساس التقديس ص٢٣١ .

– أين الحكمة فى تراث الباطنية – إن كان لهم تراث – بعد أن عطلوا فريضة الصوم وفسروها بكتمان الأئمة ؟

– أين الحكمة فى صنيع الباطنية بعد أن أحلوا الخمر وأباحوا الميسر وفسروهما بمولاة أبى بكر وعمر ؟

– أين الحكمة لدى الباطنية ، وقد أسقطوا التكاليف وأباحوا المحرمات ؟

– أين الحكمة – بمعنى الإصابة فى القول والعمل – بعد أن فسر الباطنية « الجنابة » بأنها الجهل بعلم الباطن ؟ وفسروا الطهارة بأنها تعلم ذلك العلم ؟ حتى حملوا قول الله تعالى ﴿ وإن كنتم جنباً فاطهروا ﴾ على : وإن كنتم جهلة بعلم الباطن فتعلموا ؟!

– أين الحكمة فى فكر الباطنية – إن كان لديهم فكر – بعد أن فسروا قتل الأولاد فى قوله تعالى ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾ بأنه ترك الداعى دعوته لا يفيدهم .

إن نظرة – ولو عابرة – إلى صنيع الباطنية واتجاهاتهم فى تأويلاتهم ، لترينا فساد استدلالهم بتلك الآيات على صحة القول بالباطن ، وذلك للانقطاع التام بين مدلول تلك الآيات ، وسياقها وبين المعنى الباطن الذى ذكروه .

أما ما استدل به الباطنية من ايات لا يمكن – فى زعمهم – حملها على ظاهرها ، فيتعين تأويلها ويكون الباطن هو المراد ، وذلك من قبيل قوله تعالى – فى وصف بيته الحرام – ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ مع أن البيت يدخله الآمن والخائف ، فلابد – إذن – من اللجوء إلى الباطن حتى لا يلزم الكذب فى خبره تعالى .

وكذا قوله سبحانه – فى وصف كتابه الكريم – ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾

مع أن القرآن لا يتعذر على من ليس بطاهر مسه ، ومن أجل ذلك يتعين التأويل والقول بالباطن .

فهذا الاستدلال – أو الاحتجاج – قول فى كتاب الله بغير علم ، وما كان كذلك فساقط لا يعتد به . ذلك أن الخبر فى الآية الأولى ﴿ ومن دخله كان آمنا ﴾ جاء بمعنى الأمر ، والأمر من صيغ الانشاء [1] ، والإنشاء لا يحتمل صدقاً ولا كذباً ، لأنه إنشاء كلام وليس إخبارا عن نسبة واقعة أو ليست بواقعة حتى يقال أنه صادق فيه أو كاذب .

وبناء عليه ، فمفهوم الآية : ليأمن كل من دخله فلا يتعرض لقتل أو ايذاء ، وبالتالى فليس فيها دليل على ما يزعمون .

وهذا الجواب بعينه يقال فى الآية الثانية ﴿ لا يمسه إلا المطهرون ﴾ فالنفى فيها جاء بمعنى ، النهى ، والنهى أيضا من صيغ الانشاء التى لا يحكم عليها بصدق ولا كذب ، فكأنه قال : انتهوا عن مسه ، إذا كنتم على غير طهارة أو كنتم غير مؤهلين لذلك .

هذا إذا كان المراد بالكتاب فى قوله ﴿ فى كتاب مكنون ﴾ هو القرآن الكريم ، أما إذا كان المراد به هو اللوح المحفوظ ، فالمعنى ظاهر ولا يحتاج إلى تأويل ، فإنه لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة .

وعليه : فلا دليل لهم أيضا فى هذه الآية ، ويبطل إحتجاجهم بها كما بطل إحتجاجهم بالآيات السابقة .[2]

---

(١) صيغ الإنشاء معروفة ، فهى ، الأمر ، نحو : اكتب الدرس ، ، النهى ، نحو : لا تضيع الوقت ، ، الاستفهام ، نحو : أى الطلاب أكثر ذكاء وتحصيلاً ، ، النداء ، يا محمد أقبل ، الدعاء ، والتمنى ، والرجاء ..... فكل هذه الصيغ أساليب انشائية خالية من الحكم بالنفى أو الاثبات ، فلا تحتمل صدقا ولا كذبا .

(٢) أما ما حتج به الباطنية من آيات ، التأويل ، فإننا سوف نجيب عنه فى الصفحات التالية ، عندما نكشف عن المقياس الصحيح للتأويل كما يراه علماء الكلام ، وأنه يختلف عن المقياس الذى عول عليه الباطنية وارتضوه .

هذا عن أدلتهم القرآنية ، أما ما ذكروه من نصوص ينسبونها إلى النبى – ﷺ – فإن أكثره – كما لا يخفى – موضوع ، أو مطعون فيه ، لا يعرفه أهل الحديث ولا نقلة الشريعة ، وما صح منه فبعيد عن تأويلاتهم الفاسدة ولا يشهد لهم .

لكن : إذا كان مسلك الباطنية فى التأويل متهافتا لا يمكن قبوله ، وباطلا يجب رده ، فهل هناك مقياس لصحة التأويل ؟ ومعيار لقبول الباطن فى التفسير ؟ وإذا كان كذلك فما هو هذا المقياس أو المعيار ؟

المقياس الصحيح للتأويل :

لقد تحدث العلماء فى ذلك ، فبينوا – فى جلاء – أن للقرآن ظاهراً وباطناً .

أما الظاهر : فهو المعنى اللفظى والمفهوم العربى ، وأما الباطن : فهو مراد الله ومقصوده من كلامه .

« فكل ما كان من المعانى العربية التى لا يتبنى فهم القرآن إلا عليها ، فهو داخل تحت الظاهر ، كالمسائل البيانية والمنازع البلاغية .

وكل ما كان من المعانى التى تقتضى تحقيق المخاطب بوصف العبودية والإقرار لله بالربوبية ، فذلك هو الباطن المراد والمقصود الذى أنزل القرآن لأجله » .[1]

لكن : إذا كان للقرآن ظاهر وباطن ، فهل لقبول ذلك الباطن من شرط ؟ وهل هناك موازين يمكن الإحتكام إليها فى قبول التأويلات أوردها ؟

---

(١) الشاطبى : الموافقات ج٣ ص٢٢٧ نقلا عن : تأويلات الباطنية – بحث للدكتور / عبد الوهاب فايد – مجلة كلية أصول الدين بالقاهرة – العدد ١٩٨١م .

لقد أجاب العلماء عن ذلك فبينوا أن لذلك شرطين أساسيين أحدهما لفظى هو موافقة اللغة وقوانينها ، والثانى معنوى هو شهادة الشرع بأصوله الأربعة (الكتاب والسنة والاجماع والقياس) فإذا تحقق هذان الشرطان كان الباطن صحيحا ومقبولا ، وإلا كان فاسدا ومردوداً [1] ، وذلك كتأويل الباطنية ، فإنها فاقدة للشرطين معاً .[2]

يقول الإمام الشاطبى فى ذلك « وكون الباطن هو المراد يشترط فيه شرطان .

أحدهما : أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب ويجرى على المقاصد العربية .

والثانى : أن يكون له شاهد نصا أو ظاهراً فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

فأما الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا ، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب ، لم يوصف بكونه عربيا باطلاق ، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن ليس فى ألفاظه ولا فى معانيه ما يدل عليه ، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا ، إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه ، ولا مرجح يدل على أحدهما ، فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر ، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم « من قال فى كتاب الله بغير علم » .

وأما الثانى : فلأنه إن لم يكن له شاهد فى محل آخر ، أو كان له معارض ،

---

(١) انظر : مشكاة الأنوار ص٩٨ للإمام يحيى العلوى .

(٢) وافتقادهم لهذين الشرطين يبطل احتجاجهم بآيات « التأويل » التى سبق ذكرها لهم فى معرض الاحتجاج .

صار من جملة الدعاوى التى تدعى على القرآن ، والدعوى المجردة غير مقبولة باتفاق العلماء ، .[1]

وهذا الذى نص عليه الشاطبى هو رأى الجمهور من علماء التفسير والكلام والفلسفة .

ففى « التأويل الإسماعيلى الباطنى » يقول الدكتور عبد العزيز سيف النصر « إن الجو العام الغالب على المفسرين والمتكلمين والفلاسفة هو استعمال التأويل بما يتفق مع المفاهيم اللغوية والعقلية التى يصل إليها أهل الاستنباط بفضل تبحرهم فى العلوم الدينية والعقلية ودراسة مظاهر خلق الله تعالى » .[2]

ليس هذا فحسب ، بل إننى أرى أن « التأويل » وإن كان طريقا مشروعاً ، ونهجاً سلكه المتكلمون ومارسوه ، ورغم أنه كان محاطاً بضمان قوى ، ويخضع لمراقبة دقيقة من قواعد اللغة وقوانين الشرع ، ولذلك كان مصونا من أى تحريف أو تبديل .

أقول رغم كل هذا ، فلم يكن عند المتكلمين هو القانون أو القاعدة فى تعاملهم مع نصوص الكتاب والسنة ، بل لقد حصروه فى أضيق نطاق ، وخصوه بآيات التشابه والصفات ، وما لا يمكن حمله من النصوص على ظاهره ، كأن يكون فى الأخذ بالظاهر تشبيه أو تجسيم ، هذا – فقط – هو موضع التأويل ومكان التدخل .

أما إذا قال الله تعالى – آمراً المؤمنين – ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا

---

(١) الموافقات ج٣ ص٢٣٥ .
(٢) التأويل الاسماعيلى ص٦٨ .

الزكاة ﴾ [1] أو قال ﴿ ولله على الناس حج البيت ﴾ [2] فلا مكان لتأويل ولا مجال لتدخل .

وكذلك إذا قال ﴿ يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ [3] أو قال ﴿ أنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ [4] أو قال ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ﴾ [5] فلا مكان لتدخلات عقلية تطرح الظاهر وتزعم أن له باطنا هو المراد ، فهذا لغو فى كتاب الله وتحريف للكلم عن مواضعه .

وحتى في ايات التشابه ، ينبغى – من وجهة نظرى – الإلتزام بمذهب السلف ، فنأخذ بظاهر النص ونؤمن به كما ورد ، ونفوض علم ذلك وحقيقته إلى الله تعالى ، فنقف عند قوله سبحانه – فيما تشابه من آياته – ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾ [6] ونؤمن – يقيناً – بأن الراسخين فى العلم مهما علا كعبهم ، ومهما حصلوا من معارف ، لا يملكون سوى التفويض والتسليم .

إننى أعتقد أن التحريف ما دخل فى دين الله ، إلا من باب التأويل ، وأن

---

(١) من الآية ٧٨ من سورة الحج .
(٢) من الآية ٩٧ من سورة آل عمران .
(٣) من الآية ١٨٣ من سورة البقرة .
(٤) من الآية ٩٠ من سورة المائدة .
(٥) من الآية ١٥١ من سورة الأنعام .
(٦) من الآية ٧ من سورة آل عمران .

اللغو واللغط ما ذاع وانتشر ، إلا تحت ستار من دعوى الباطن ، فمن الأسلم والأحوط إغلاق هذا الباب بالكلية ، والعودة إلى ما كان عليه سلف هذه الأمة ، وذلك حتى لا يكون التأويل أكذوبة يتستر وراءها أهل البدعة والضلال ، وكل من تسول له نفسه للنيل من كتاب الله .

لكن : إذا كان هناك – فى الفكر الكلامى الإسلامى – معايير لقبول الباطن فى التفسير ، وقد تجاهلها الباطنية ولم يقيموا لها وزنا ، فما حكم الإسلام فيما صنعوا ؟ وهل يمكن لذلك أن نحكم عليهم بالكفر وتجردهم من الإيمان ؟

سوف أجيب على ذلك بعد أن أقدم له بعرض وتوضيح لبعض الاعتراضات والمآخذ أسجلها على المذهب الباطنى بوجه عام .

مآخذ يجب تسجيلها :

لعل أهم ما يجب تسجيله على المذهب الباطنى – بوجه عام – من مآخذ تدل على فساده وتكشف عن تهافته ، أمور أهمها :

١ – أخذهم العهود والمواثيق على المستجيب بعدم إظهار معانيهم وتأويلاتهم التى يوحون بها إليه ، حتى يتحين الفرص ، ويتحسس الطرق ، ويتخير لذلك الظروف والأوقات [١] ، لأنهم يعلمون أن هذه البواطن – أو التأويلات الباطنية – لا تستقيم مع اللغة ولا مع الشرع .

٢ – إختلاف التأويل عندهم من إمام إلى آخر ، بل الإمام الواحد كثيرا ما تصدر عنه فى المسألة بعينها تأويل مختلفة وإجابات متناقضة ، فهل يتفق هذا مع ما يدعونه من أن علم التأويل إرثى ورثوه عن رسول الله ﷺ ؟ ليس هذا إلا تناقضاً يكشف عن كذبهم وفساد مذهبهم .

---

(١) انظر : أساس التأويل للقاضى النعمان ص٣١ – ٣٢ .

واعتذار الباطنية بأن هذا التناقض جاء من الأئمة مخاطبة للمستجيبين على قدر عقولهم ، ومكاشفة لكل مخاطب بما يتناسب ومستواه العقلى والثقافى [1] ، تمويه وتضليل .

٣ – ثم يقال لهم : إن هذه التأويل – أو البواطن – إن كان يجب إظهارها ، فلم كتمها رسول الله ﷺ ؟ وإن كان يجب إخفاؤها – وقد أخفاها رسول الله عليه السلام – فكيف يحل لنا إفشاء ما كتمه ﷺ ؟ إن هذا – بلا شك – من آيات الخلل والفساد فى المذهب الباطنى . [2]

٤ – كذلك من آيات الخلل والفساد فى هذا المذهب بوجه عام ، إنكارهم القياس ، وعدم اعترافهم به كأصل من أصول التشريع بعد الكتاب والسنة والإجماع . [3]

فهذا يخالف إجماع الأمة ، ويدل على أن هؤلاء ليسوا بعلماء ولا فقهاء ، وإنما هم جماعة من أهل البدعة يأخذون خرافاتهم من شتى الفلسفات والديانات البائدة ، من يونانية وثنية ، وفارسية مجوسية ، ويهودية منحرفة ..... الخ .

٥ – كذلك يجب على من يتصدى لدراسة عقائد الباطنية ، ويعنى بتحليلها والحكم عليها ، أن لا يغفل عن مبدأ « التقية » عندهم ، وما يحمله بين طياته من دلائل الفساد . فقد أتاح لهم هذا المبدأ « الكذب » ، وأن يقولوا بأفواههم ماليس فى قلوبهم ، كما أتاح لهم إخفاء عقائدهم التى تخالف دين الإسلام .

٦ – أيضا : يجب على من يتصدى لدراسة عقائد الباطنية ، أن لا يغفل عما ينطوى عليه إنكارهم « الملائكة » من إنكار للوحى والنبوة .

---

(١) انظر : المصدر السابق والصحيفة ، تأويل الدعائم ج١ ص٥٧ .
(٢) انظر : تلبيس إبليس لابن الجوزى صفحات ١٠٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ .
(٣) انظر : تأويل الدعائم للقاضى النعمان ج١ ص٨٤ .

ذلك أن الوحى – وكما هو معروف – يتوقف على أمرين أساسيين هما :

استعداد نفس النبى لتلقى الوحى ، ووجود ملائكة يبلغون عن الله تعالى .

فإذا أنكر الباطنية الملائكة – وقد أنكروها بالفعل [1] – فقد أنكروا الوحى وبالتالى النبوة .

٧ – وأخيراً : يجب على من يتهيأ لتحليل الأفكار الباطنية وتقييمها ، أن لا يغفل عما ينطوى عليه قولهم فى التأويل الباطنى وأن مصدره هو الإمام من تناقض واضح .

ذلك أن الألفاظ التى تصدر عن الإمام – فى تأويله الباطنى – هى بدورها محتملة لا محالة للرمز والباطن ، وما دام ظاهر اللفظ محتملاً لذلك ، وهو أمر ضرورى بناء على قاعدتهم ، فكيف يتم لهم ما يدعون ؟ [2]

والآن : وبعد هذه المآخذ والاعتراضات التى سجلناها على المذهب الباطنى بوجه عام ، نعود إلى السؤال الذى سبق أن طرحناه :

إذا كان هناك فى الفكر الإسلامى معايير لقبول الباطن فى التفسير ، وقد تجاهلها الباطنية وأسقطوها من حساباتهم تماما ، فما حكم الإسلام فيما صنعوا ؟ وهل يمكن لذلك أن نحكم عليهم بالكفر ونجردهم من الإيمان ؟ وما رأى العلماء فى ذلك ؟

الباطنية بين الإيمان والكفر :

بعد أن بات من الواضح أن الباطنية تستخدم التأويل كسلاح لإفساد العقيدة وإبطال الدين ، وأنهم يتسترون وراء دعوى الباطن من أجل نسخ شريعة الإسلام ،

---

(١) انظر : التبصير فى الدين للاسفراييني ص٨٦ .

(٢) انظر : فضائح الباطنية ص٥١ لحجة الإسلام الغزالى .

بل والتحال من كل الشرائع ، يصبح الحكم بكفرهم أمراً لا مفر منه ، بل واجباً دينياً ومطلباً شرعياً .

وذلك بعد أن أسقطوا التكاليف ، وأبطلوا الفرائض ، وأنكروا الصوم والصلاة والزكاة وكل أركان الإسلام ، وفسروا كل ذلك تفسيراً لا يستقيم مع اللغة ولا مع الشرع .

وهذا الحكم بكفرهم ليس وليد الساعة ، بل هو قديم قدم الباطنية وخرافاتهم[1] .

فقد أصدره الغزالى يوم أن كتب فى « فضائح الباطنية »[2] ، وعبر عنه ابن الجوزى يوم أن ناقشهم ورد عليهم فى « تلبيس إبليس » .

كما تصدى لهم مفكروا الإسلام ، واعتبروا صنيعهم بدعة فى الدين وضلالة فى الإسلام ، كما اعتبروه إلحاداً فى كتاب الله ، وتحريفاً للكلم عن مواضعه ووسموهم لذلك بالكفر وأخرجوهم من الإيمان .

ففى تلبيس إبليس يقول ابن الجوزى – إقتباساً من ابن عقيل – « هلك الإسلام بين طائفتين ، بين الباطنية والظاهرية ، فأما أهل الباطن ، فإنهم عطلوا ظواهر الشرع ، بما ادعوه من تفاسيرهم التى لا برهان لهم عليها ، حتى لم يبق فى الشرع شيئ إلا وقد وضعوا وراءه معنى ، حتى أسقطوا ايجاب الواجب ، والنهى عن المنهى ..... »[3] ولا شك أن طائفة يهلك الإسلام على أيديهم ، أى

---

(١) ليس المراد بالقدم هنا معناه الشائع الذى اصطلح عليه المتكلمون وهو : ما لا أول لوجوده ، فإن هذا الوصف لا ينطبق إلا على واجب الوجود سبحانه وصفاته ، وإنما المراد أن الباطنية ضاربة بجذورها فى عمق التاريخ ، وأنها تصل فى نشاطها إلى غلاة الشيعة فى عهد أبى بكر وعمر رضى الله عنهما .

(٢) انظر المصدر المذكور ص٣٧ .

(٣) انظر المصدر المذكور ص١٠٨ .

يشرعون من القوانين ويستحدثون من النظم ما يتناقض مع شريعة الإسلام ونظمه ، حتى أسقطوا إيجاب الواجب والنهى عن المنهى » - كما هى عبارة ابن الجوزى - لهى طائفة ملحدة كفرة .

ويويده قوله فيهم « اعلم أن القوم - أي الباطنية - أرادوا الإنسلال من الدين ، فشاوروا جماعة من المجوس والمزدكية والثنوية وملحدة الفلاسفة فى استنباط تدبير يخفف عنهم ما نالهم من استيلاء أهل الدين عليهم ..... ، فغايتهم اذن الإنسلال من الدين ، والخروج عليه ، والكيد له ، والنيل منه ، ولم يكن ذلك إلا كفرا .

أما حجة الإسلام الغزالى ، فقد كان أكثر صراحة فى التعبير عن هذا الحكم ، وذلك عندما قال - فى المذهب الباطنى - « وأما الجملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض » .

وعندما قال « ينبغى أن يعرف الإنسان أن رتبة هذه الفرقة - الباطنية - أحسن من رتبة كل فرقة من فرق الضلال ، فقد استحلوا الحرام ، وحرموا الحلال ، واستهتروا بالشارع الحكيم ، فكان الحكم بكفرهم أمرا لا مفر منه ، وكان جزاؤهم جهنم والخلود فيها .

﴿ ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

صدق الله العظيم